تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الثالث عشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء الثالث عشر

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

المعنى الجملى

هذه الآية الكريمة من تتمة إقرار امرأة العزيز كما اختاره أبو حيان فى البحر ، ويؤيده عطفه على ما قبله ، وقد جعلت أول الجزء الثالث عشر ، لأن تقسيم القرآن إلى الأجزاء قد لوحظ فيه مقادير الكلم العددى دون المعانى .

الإيضاح

(وما أبرئ نفسى) أى وما أبرئ نفسى من دعوى عدم خيانتى إياه بالغيب بعد أن وجهت إليه اقتراف الذنب وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ، وأودعته السجن وعرف الناس خاصتهم وعامتهم ذلك ، وكأنها بذلك تريد التنصل مما كان .

(إن النفس لأمارة بالسوء) أى إن النفس البشرية لكثيرة الأمر بعمل السوء لما فيها من دواعى الشهوات الجسمية والأهواء النفسية بما ركب فيها من القوى والآلات لتحصيل اللذات ، وما يوسوس الشيطان ويزينه لها من النزغات ، ومن ذلك أن حرضت زوجى على سجن يوسف وقد كان ذلك مما يسوءه ، فالعفيف النزيه لايرضى أن يُزَنَّ بالريبة كما يسوء زوجى إذ لايرضى أن يكون عرضه مضغة للأفواه وحديث الناس فى أنديتهم وأسمارهم .

(إلا ما رحم ربى) أى إلا نفسا رحمها ربى فصرف عنها السوء والفحشاء بعصمته كنفس يوسف عليه السلام .

ثم علل ما سلف بقوله :

(إن ربى غفور رحيم) أى إن ربى عظيم المغفرة ، فيغفر ما يعترى النفوس بمقتضى طباعها ، إذ ركب فيها الشهوات الجسمية والأهواء النفسية .

تولية يوسف رئيسا لحكومة مصر

وما وقع لإخوته معه حينئذ

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)

المعنى الجملى

بعد انتهاء التحقيق فى أمر النسوة وظهور براءة يوسف من كل سوء ، طلب الملك إحضاره إليه من السجن بعد أن وفّى له بما اشترط لمجيئه ــ فلما جاءه وسمع كلامه فهم من فحوى حديثه ، ومن أمانته على مال العزيز وعرضه وحسن تصرفه ، ومن

سيرته الحسنة فى السجن ، ومن علمه وفهمه فى تأويله للرؤيا ، ومن حرصه على إظهار شرفه وكرامته فى مسألة النسوة ما دل على أنه أهل لأن يرفع إلى أعلى المراتب ويولى أسمى المناصب ، وذلك هو ما فعله الملك لحصافة رأيه وبصره بأقدار الرجال ، ولم يصرفه عن ذلك كونه غريبا أو فقيرا أو مملوكا ، كما تشير إلى ذلك الآيتان .

الإيضاح

(وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى) أى وقال الملك أحضروه من السجن إلىّ بعد أن وفيت له بما طلب : أجعله خالصا لى وموضع ثقتى فلا يشاركه أحد فى إدارة ملكى ولا تكون وساطة بينه وبينى . وقد جرت عادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم ، قال ابن عباس : إن الرسول أتاه فقال ألق عنك ثياب السجن والبس ثيابا جُددا وقم إلى الملك فدعا له أهل السجن ودعا لهم وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فلما أتاه رآه غلاما حدثا ، فقال أيعلم هذا رؤياى ولم يعلمها السحرة والكهنة وأقعده قدامه ، وقال لا تخف وألبسه طوقا من ذهب وثياب حرير وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك وضرب الطبل بمصر إن يوسف خليفة الملك.

(فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين) أى فأتوه به فلما كلمه وسمع ما أجاب به ، قال له إنك لدينا ذو مكانة سامية ، ومنزلة عالية ، وأمانة تامة ، فأنت غير منازع فى تصرفك ، ولا متهم فى أمانتك .

وفى هذا إيماء إلى أن الحوار بين المتخاطبين يظهر معارف الإنسان وأخلاقه وآدابه وجميع شمائله فيقدره من يعرف أقدار الرجال ويزنهم بفضائلهم ومزاياهم .

والظاهر أن الملك كلمه مشافهة بدون ترجمان ، لأن يوسف كان قد عرف اللغة المصرية من العزيز وامرأته بمحادثته إياهما ومع حاشية الوزير من حين قدم مصر ، ومن محادثته صاحبيه فى السجن .

وقد تكون اللغة التى كان يتكلم بها يوسف لغة جده إبراهيم وأولاده وحفدته

وكانوا من العرب القحطانيين ثم تفرعت من هذه العربية الإسماعيلية فالمصرية والعبرانية والسريانية ، وكان ملوك مصر وكبراء حكامها فى ذلك العهد من أولئك العرب وهم الذين يسمون بالرعاة (الهكسوس) .

ويقول المؤرخون إن ملك مصر فى ذلك العهد كان يسمى الوليد بن الريان .

(قال اجعلنى على خزائن الأرض) الخزائن واحدها خزانة وهى مايخزن فيه غلات الأرض ونحوها ، أى قال ولّنى خزائن أرضك كلها وأكن مشرفا عليها لأنقذ البلاد من مجاعة مقبلة عليها تهلك الحرث والنسل .

ثم ذكر سبب طلبه فقال :

(إنى حفيظ عليم) أى إنى شديد الحفظ لما يخزن فيها فلا يضيع منه شىء أو يوضع فى غير موضعه ، عليم بوجوه تصريفه وحسن الانتفاع به .

وقد طلب إدارة الأمور المالية لأن سياسة الملك وتنمية العمران وإقامة العدل فيه تتوقف عليها ، وقد كان مضطرا إلى تزكية نفسه فى ذلك حتى يثق به الملك ويركن إليه فى تولية هذه المهام .

وما أضاع كثيرا من الممالك الشرقية فى القرون الأخيرة إلا الجهل والتقصير فى النظام المالى وتدبير الثروة وحفظها فى الدولة والأمة .

روى أن الملك لما كلمه وقص عليه رؤياه وعبرها له ، قال ما ترى أيها الصديق ؟ قال تزرع فى سنى الخصب زرعا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام بقصبه وسنبله فإنه أبقى له ، ويكون القصب علفا للدواب ، فإذا جاءت السنون العجاف بعت ذلك فيحصل لك مال عظيم ، فقال الملك ومن لى بهذا ومن يجمعه ويبيعه لى ويكفينى العمل فيه ؟ قال : اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم .

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه إجابة الملك له بأنه أصبح لديه مكينا أمينا وطلب يوسف منه أن يجعله على خزائن الأرض يصرفها على حسب مايرى من التدبير والنظام والدراية والإحكام .

ذكر هنا أنه أجابه إلى مطلبه وجعله وزيرا فى دولته يتصرف فى شئونها لحسن تدبيره وثاقب رأيه ، وذلك جار على سنن الله فى خلقه ، فلن ينال الرياسات العليا والمناصب الرفيعة إلا من يؤتيه الله من المواهب ما يجعله قادرا على ضبط الأعمال وإقامة النظام وحسن السياسة والكياسة فى تصريف الأمور .

الإيضاح

(وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء) أى ومثل هذا التمكين الذى سلف ذكر أسبابه ومقدماته، فقد ذكرنا أن إخوة يوسف لو لم يحسدوه ما ألقوه فى غيابة الجب ، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر ، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته أمانته وصدقه لما أمنه على بيته وماله وأهله ، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها ، ولو لم تخب فى كيدها وكيد صواحباتها ما ألقى فى السجن لإخفاء هذا الأمر ، ولو لم يسجن لما عرفه ساقى الملك وعرف علمه وفضله وصدقه فى تعبير الرؤيا ، ولو لم يعرف ذلك منه الساقى ما عرفه ملك مصر ولم يجعله على خزائن الأرض ، فما من حلقة من هذه السلسلة إلا كانت متممة لما بعدها ، وبإذن الله كانت سببا للوصول إلى ما يليها ، فكلها فى بدايتها كانت شرا وخسرا وفى عاقبتها فوزا ونصراً مبينا ومهدت للتمكين لدى ملك مصر .

فكما مكن له فى ذلك مكن له فى أرض مصر وقد جىء به مملوكا فأصبح مالكا ذا نفوذ وأمر ونهى لاينازعه منازع فيا يراه ويختاره وصار الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه فيا يرى بما أعده الله تعالى له من تحلية بالصبر واحتمال الشدائد ، والأمانة والعفة وحسن التصرف والتدبير للأمور .

(نصيب برحمتنا من نشاء) أى نخص برحمتنا من إعطاء الملك والرياسة والغنى والصحة ونحوها من نشاء من عبادنا بمقتضى ما وضعنا من السنن فى الأسباب الكسبية مع موافقتها للأحداث الكونية ومراعاة النظم الاجتماعية والفضائل الخلقية

(ولا نضيع أجر المحسنين) أى ولا نضيع أجر من أحسنوا فى أعمالهم بشكران هذه النعم ، بل نأجرهم عليها سعادة وهناءة ، وقد بذلنا تلك النعم لمن يطلبها متى أتى الأمور من أبوابها وسار على مقتضى السنن التى وضعناها .

أما من يسيئون التصرف فيها فتصيبهم المنغصات ، وتتوالى عليهم المكدرات ، فالمسرفون لايلبثون أن ينالهم الفقر والعُدْم ، والظالمون يثيرون أضغان المظلومين ، وذوو الخيلاء والبطر يكونون محتقرين ، وقلما يصيب المحسنين الشاكرين من ذلك شىء ، وإن نالهم منه شىء يكن أهون عليهم وهم عليه أصبر .

وفى الآية إيماء إلى أنه ما أضاع صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز بل كان جزاؤه ما مكن له فى الأرض ولدى ملك مصر .

(ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) أى إن أجر الآخرة وهو نعيمها يكون للمؤمنين المتقين ، وذلك خير لهم من أجر الدنيا لأهلها وإن بلغوا سلطان الملك ، فإن ما أعده لأولئك ليتضاءل أمامه كل مافى الدنيا من مال وجاه وزينة ولاشبهة فى أن من يجمعون بين السعادتين يكون فضل الله عليهم أعظم ، إذا هم أعطوا حقها من الشكر وقاموا بما يجب عليهم نحو خالقهم من طاعته وترك معصيته.

روى الشيخان عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : « قال فقراء المهاجرين للنبى صلى الله عليه وسلم يارسول الله ذهب أهل الدثور (واحدها دثر بالفتح: المال الكثير) بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، قال ما ذاك ؟ قالوا يصلون كما نصلى و يصومون كما نصوم و يتصدقون كما نتصدق و يعتقون ولا نعتق ، قال صلى الله عليه وسلم : أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ؟ ولا يكون أحد أفضل منكم ، إلا من صنع مثلكم ؟ قالوا بلى يارسول الله قال : تسبحون وتكبرون وتحمدون

الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة » قال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِى وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

شرح المفردات

المعرفة والعرفان : معرفة الشيء بتفكر فى أثره ، وضده الإنكار ، وجهزهم : أى أوقر ركائبهم بما جاءوا لأجله ، وجهاز السفر : أهبته وما يحتاج إليه فى قطع المسافة ، ومثله جهاز الميت والعروس (بالكسر والفتح وبهما قرئ) أوفى الشيء : جعله وافيا تاما ، المنزلين : أى المضيفين للضيوف ، نراود : أى نخادع ونستميل برفق ، لفاعلون : أى لقادرون على ذلك ، لفتيانه : أى غلمانه الكيالين ، بضاعتهم : أى التى اشتروا بها الطعام وكانت نعالا وأدما ، والبضاعة : المال الذى يستعمل للتجارة ، والرحال : واحدها رحل : وهو مايوضع على ظهر الدابة وفوقه متاع الراكب وغيره ، وانقلبوا : أى رجعوا .

المعنى الجملى

جاء فى سفر التكوين من التوراة أن يوسف عليه السلام حين ولى الوزارة

طفق يُعدّ العُدة ويأخذ الأهبة لتنفيذ التدابير التي يقى بها البلاد من خطر المجاعة التي جاءت في تأويل رؤياه للملك ، وكان من ذلك أن بنى الأهراء العظيمة وخزن فيها الحبوب التي استكثر منها مدة سني الخصب السبع الأولى ، فلما جاءت السبع الشداد وعم القحط مصر وغيرها من الأقطار القريبة منها ولاسيما أقربها إليها وهي فلسطين من بلاد الشام ، واشتهر لدى أهلها ما فعله يوسف في مصر من حسن التدبير حتى كثرت فيها الغلال وأصبح يبيع ما زاد على حاجة أهلها للأقطار المجاورة لها أمر يعقوب عليه السلام أولاده أن يرحلوا إلى مصر ويأخذوا معهم مايوجد في بلادهم من بضاعة ونقد فضة ويشتروا به قمحا لأن المجاعة أوشكت أن تقضى عليهم فنفذوا ماأراد وكان بينهم وبين يوسف ماقصه الله علينا في كتابه الكريم .

الإيضاح

(وجاء إخوة يوسف) ممتارين حين أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ماأصاب مصر ، وكان قد حل بآل يعقوب ماحل بأهلها فدعا أبناءه ماعدا بنيامين فقال لهم يابنيّ قد بلغني أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا إليه واقصدوه واشتروا منه ماتحتاجون إليه فخرجوا حتى قدموا مصر .

(فدخلوا عليه) وهو في مجلس ولايته ، لأن أمر الميرة وشراء الغلال كان بيده ورهن أمره .

(فعرفهم) حين دخلوا عليه بلا تردد إذ كان عددهم وشكلهم وزيهم لايزال عالقا بخياله لتشوقه بينهم ولاسيما ماقاساه منهم في آخر عهده بهم ، وربما كان عمال يوسف وعبيده قد سألوهم عن أمرهم قبل أن يدخلوهم عليه وأخبروه بأوصافهم والبيئة التي رحلوا منها .

(وهم له منكرون) لنسيانهم له بطول العهد ، وتغير شكله بدخوله في سن الكهولة ، ولما كان عليه من عظمة الملك وزيه وشارته ، وما كان من حاجتهم إلى بره وعطفه .

فكل أولئك مما يحول دون التثبت من معارف وجهه ، ولا سيما أنهم كانوا يظنون أنه قد هلك أو طوّحت به طوائح الأيام ، ولو كانوا قد فطنوا لبعض ملامحه وتذكروه بها لربما عدوه مما يتشابه فيه بعض الناس ببعض العادات ، وبخاصة أنه لم يكن يدور بخلدهم أن أخاهم قد وصل إلى ذلك المركز السامى .

(ولما جهزهم بجهازهم) أى ولما أوقر ركائبهم بما جاءوا لأجله من الميرة والطعام وجهزهم بما سوى ذلك من الزاد وبما يحتاج إليه المسافرون عادة على قدر طاقتهم وبيئتهم .

(قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) هو شقيقه بنيامين ، وسبب ذلك أن يوسف ما كان يعطى لأحد إلا حمل بعير ، وقد كان إخوته عشرة فأعطاهم عشرة أحمال فقالوا إن لنا أبا شيخاً كبيراً وأخا آخر بقى معه ، وإن أباهم لتقدم السن به وشدة حزنه لا يستطيع الحضور ، وإن أخاهم بقى فى خدمة أبيه ، ولا بد لهما من شىء من الطعام فجهز لهما بعيرين آخرين ، وقال لهم جيئونى بأخيكم لأراه .

وفى سفر التكوين أنه كان استنبأهم عن أنفسهم متنكرا لهم ، إذ عرفهم ولم يعرفوه واتهمهم بأنهم جواسيس جاءوا ليروا عورة البلاد ، فأنكروا ذلك وأخبروه خبرهم ، فقالوا نحن عبيدك اثنا عشر أخا ونحن بنو رجل واحد فى أرض كنعان ، وهذا الصغير عند أبينا اليوم ، والواحد مفقود ، فقال لهم يوسف ، ذلك ما كلمتكم به قائلا ، جواسيس أنتم ، بهذا تمتحنون، وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجىء أخيكم الصغير إلى هنا . فدعوا رهينا عندى وأتونى بأخيكم من أبيكم ، فاقترعوا فأصابت القرعة شمعون فخلفوه عنده. ثم أمر يوسف أن تملأ أوعيتهم قمحاً وترد فضة كل واحد إلى عدله وأن يعطوا زادا للطريق ، ففعل لهم هكذا اهـ .

(ألا ترون أنى أوفى الكيل) أى أتمه ولا أبخسه وأزيدكم حمل بعير لأجل أخيكم.

(وأنا خير المنزلين) أى وأنا على هذا خير المضيفين لضيوفه ، فقد أحسن ضيافتهم وجهزهم بالزاد الكافى لهم مدة سفرهم ومن هذا يعلم أن رواية اتهامهم بالتجسس ضعيفة على كونها لا تليق بمن دون الصديق النبى وهو يعلم بطلانها ، إلا أن تكون ذريعة لغرض صحيح كاتهامهم بالسرقة .

(فإن لم تأتونى به فلا كيل لـكم عندى) أى فإذا عدتم تمتارون لأهلـكم ولم يكن معكم منعتم من الـكيل فى بلادى فضلا عن إيفائه و إكماله الذى كان لـكم بأمرى .

(ولا تقربون) أى ولا تقربونى بدخول بلادى فضلا عن الإحسان فى الإنزال والضيافة .

وفى ذلك إيماء إلى أنهم كانوا على نية الامتيار مرة بعد أخرى ، وأن ذلك كان معلوما له عليه السلام ، والظاهر أن مافعله معهم كان بوحى ، و إلا فالبرّ كان يقتضى أن يبادر إلى أبيه و يستدعيه ، ولعل الله أراد تكميل أجر يعقوب فى محنته ، وهو الفعال لمـا يريد فى خلقه.

(قالوا سنراود عنه أباه) أى سنجتهد ونحتال على أن ننزعه من يده ونحوّله عن إرادته فى إبقائه عنده إلى إرادتنا و إرادتك ، ونقنعه بإرساله معنا كما تحب .

(و إنا لفاعلون) ذلك لامحالة ولا نتوانى فيه .

(وقال لفتيانه) أى غلمانه الـكيالين .

(اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم) أى اجعلوا بضاعتهم التى اشتروا بها الطعام وكانت نعالا وجلودا فى أمتعتهم من حيث لايشعرون .

(لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم) أى لـكى يعرفوا لنا حق إكرامهم بإعادتها إليهم وجعل ما أعطيناهم من الغلة مجانا بلا ثمن ، إذا هم رجعوا إلى أهلهم وفتحوا متاعهم فوجدوها فيه .

ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة إليهم بقوله :

(لعلهم يرجعون) إلينا طمعا فى برنا ، فإن العوز إلى القوت من أقوى الدواعى إلى الرجوع .

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِـعَ مِنَّا الْـكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَـكْتَلْ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُـكُمْ عَلَيْهِ

إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ؟ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)

الإيضاح

(فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل) أى قالوا حين رجوعهم إلى أبيهم إن عزيز مصر أصدر أمره بمنع الكيل لنا فى المستقبل إن لم نحضر معنا أخانا بنيامين فقال : (إن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى) .

(فأرسل معنا أخانا نكتل) من الطعام ما نحتاج إليه بقدر عددنا ونكون قد وفينا له بما شرط علينا ، والعرب تقول كلت له الطعام إذا أعطيته ، واكتلت منه وعليه إذا أخذت منه أو توليت الكيل بنفسك .

(وإنا له لحافظون) فى ذهابه وإيابه ، فلا يناله مكروه تخافه ، وكأنهم كانوا يعتقدون أن أباهم لابد أن يرفض إجابتهم خوفا عليه من أن يحدث له مثل ما حدث ليوسف بدافع الحسد من قبل ، فكان جوابه لهم :

(قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) أى هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تغيبونه عنى وتحولون بينى وبينه ، وقد قلتم مثل هذا الكلام فى يوسف إذ ضمنتم حفظه وقلتم (وإنا له لحافظون) ثم خنتم فى عهدكم وكذبتم فأضعتم يوسف ، فأنتم لايوثق لكم بوعد ولا يطمأن منكم إلى عهد ، فما أشبه الليلة بالبارحة .

(فالله خير حافظا) أى فأنا أتوكل على الله فى حفظ بنيامين لاعلى حفظكم .

(وهو أرحم الراحمين) فأرجو أن يرحمنى بحفظه ولا يبتلينى بفقده كما ابتلانى من قبل بفقد أخيه يوسف ، فرحمته واسعة ، وفضله عظيم .

وهذا كما ترى ، فيه ميل منه إلى الإذن والإرسال لما رأى من شدة الحاجة إلى ذلك ، ولأنه لم ير فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ماشاهد بينهم وبين يوسف ، وفيه من التوكل على الله مالا خفاء فيه .

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ؟ هٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ ٱللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)

شرح المفردات

المتاع : ماينتفع به والمراد هنا وعاء الطعام ، والبضاعة : ثمن ما كانوا أعطوه من الطعام ، ونمير أهلنا : أى نجلب لهم الميرة (بالكسر) وهى الطعام يجلبه الإنسان من بلد إلى بلد ، كيل بعير : أى حمل جمل ، فكيل بمعنى مكيل ، ويسير : أى قليل لايكثر على سخائه كما جاء فى قوله : « وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً » أو سهل لاعسر فيه كما فى قوله : « وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً » والموثق : العهد الموثق ، إلا أن يحاط بكم : أى إلا أن تغلبوا على أمركم أو إلا أن تهلكوا ، فإن من يحيط به العدو يهلك غالبا ، وكيل : أى مطلع رقيب ، فإن الموكل بالأمر يراقبه ويحفظه .

الإيضاح

(ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم) أى ولما فتحوا أوعية طعامهم وجدوا فيها ما كان أعطوه من بضاعة ونقد ثمنا لما اشتروه من الطعام ، إذ أن يوسف أمر فتيانه أن يضعوها فى رحالهم وهم لايعلمون ذلك .

(قالوا يا أبانامانبغى ؟) أى ماذا نطلب وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمه الذى يوجب علينا امتثال أمره ومراجعته فى الحوائج ، وقد كانوا حدّثوا أباهم بذلك على ما روى أنهم قالوا له إنا قدمنا على خير رجل وقد أنزلنا خير منزل

وأكرم وفادتنا ولو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته ، ثم استدلوا على هذا بقولهم :

ثم أكدوا صدق كلامهم بقولهم :

(هذه بضاعتنا ردت إلينا) أى إن ماتقول فى وصفه ومزيد إحسانه ولطفه لنا من شواهد الحال ماهو دليل عليه ، فهذه بضاعتنا ردت إلينا تفضلا منه بعد أن أثقل كواهلنا بعظيم مننه وجميل عطفه .

وهم بهذا يومئون إلى أن ذلك كاف فى وجوب امتثال أمره والالتجاء إليه طلبا للمزيد من فضله ، فكل ماجئنا به على غلائه وعظم قيمته هو هبة منه وتفضل علينا.

(ونمير أهلنا) أى فنحن ننتفع ببضاعتنا ونمير أهلنا بما نجلبه لهم من الميرة من مصر بلا ثمن .

(ونحفظ أخانا) بعنايتنا جميعا به ، على أننا لانخشى شيئا من المخاوف التى تغلبنا عليه .

(ونزداد كيل بعير) أى ونزيد على ما نأخذ لأنفسنا حمل جمل يكال لأخينا، لأن يوسف كان يكيل لكل رجل حمل بعير اقتصادا فى الطعام ، فإذا حضر بنيامين زاد حملا له .

(ذلك كيل يسير) أى إن حمل البعير كيل سهل لاعسر فيه على ذلك المحسن الجواد ، أو هو قليل لا يكثر على سخائه وجوده ولا يشق عليه .

(قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله) أى لن أرسله معكم حتى تعطونى عهدا موثقا بتأكيده بإشهاد الله عليه بالقسم به .

(لتأتننى به إلا أن يحاط بكم) أى حتى تحلفوا بالله لترجعنّ به على كل حال تعرض لكم ، إلا أن تهلكوا فيكون ذلك عندى عذرا على نحو ماجاء فى قوله : « وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ » وقوله : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ » وقد يكون المعنى ــ إلا أن تغلبوا على أمركم وتقهروا فلا تقدرون على الرجوع .

(فلما آتوه موثقهم قال الله على مانقول وكيل) أى فلما أعطوه العهد الموثق الذى اشترطه عليهم ، قال : الله شهيد على ما قاله واشترطه ، وعلى ما أجابوه به : أى إنه سبحانه رقيب عليه وأمره موكول إليه ، فهو الذى يوفق للوفاء بالوعد والصدق فيما أعطى من عهد .

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ، وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٦٨)

الإيضاح

(وقال يابنى لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) أى وقال لهم يابنى لاتدخلوا على هــذا الوزير الــكريم من باب واحد من أبواب الوصول إليه ، بل ادخلوا عليه متفرقين من أبواب متعددة ، لتروا بأعينكم مايكون من تأثير كل طائفة منكم فى نفسه وما يظهر على أسارير وجهه وحركات عينيه حين رؤية شقيقه يدخل عليه مع طائفته إذ لايعلم هذا إذا دخلوا عليه كلهم جماعة واحدة .

وقد يكون المراد لا تدخلوا عليه مجتمعين فيحسدكم الحاسدون أو يكيد لــكم الــكائدون ، فإذا حل بكم مكروه خشيت أن يصيبكم جميعا .

(وما أغنى عنكم من الله من شىء) أى وما أدفع عنكم بتدبيرى من قضاء الله شيئا ، إذ لا يغنى حذر من قدر ، وهو لا يريد إلغاء الحذر بتاتا فإنه تعالى أمر به وقال « خُذُوا حِذْرَكُمْ » بل يريد أن هذا التدبير إنما هو تشبث بالأسباب

العادية التى لا تؤثر إلا بإذن الله تعالى ، وأن ذلك ليس بدافع للقدر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه .

(إن الحكم إلا لله) أى ما الحكم فى تدبير العالم ونظم الأسباب والمسببات إلا لله وحده .

(عليه توكلت) أى عليه دون غيره ، ودون حولى وقوتى اعتمدت فى كل ما آتى وأذر .

وفى هذا إيماء إلى أن الأخذ فى الأسباب ومراعاة اتباعها لا ينافى التوكل، وقد جاء فى الخبر « اعقلها وتوكل » .

(وعليه فليتوكل المتوكلون) لا على أمثالهم من المخلوقين ولا على أنفسهم .

فعلى كل مؤمن أن يتخذ لكل أمر يقدم على عمله العدّة ويهيئ من الأسباب ما يوصل إليه على قدر طاقته ، ثم بعد ذلك يكل أمر النجاح فيه إلى الله ويطلب منه التوفيق والمعونة فى إنجازه ، فقد يكون من الأسباب ما يخفى عليه أو ما لا تصل إليه يده .

(ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) وهى الأبواب المتفرقة .

(ما كان يغنى عنهم من الله من شىء) أى ما كان دخولهم على هذا النهج يدفع عنهم شيئا من المكروه الذى يحول دون رجوعهم ببنيامين ، ونسبتهم إلى السرقة ، وتضاعف المصيبة على يعقوب .

(إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها) أى إن يعقوب كان عليما بأن الحذر لا يغنى من القدر ، ولكن كانت هناك حاجة تدور بخلده ، ما أراد أن يكاشف بها أحدا منهم ، وهى وراء الأسباب العادية فى الاحتياط بسلامة بنيامين والعودة به ، قضاها بوصيته لأولاده من حيث لا يفطنون لها ، وهى خوفه عليهم من العين ومن أن ينالهم مكروه من قِبَل ذلك .

(وإنه لذو علم لما علمناه) أى لذو علم خاص به وبأمثاله من الأنبياء ، لما أعطيناه من علم الوحى وتأويل الرؤيا الصادقة ، واعتقاده أن الإنسان يجب عليه

فى كل أمر يحاوله أن يتخذ له من الأسباب ما يصل به إلى غرضه و يبلغ به إلى غايته ثم يتوكل بعد ذلك على الله فى تسخير ما لم يصل إليه علمه مما لا تتم المقاصد بدونه .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الواجب الجمع بين أخذ العُدّة والسعى فى تحقيق الأسباب الصحيحة الموصلة إلى المراد ، و بين الاتكال على الله وهو ما فعله يعقوب عليه السلام ، ولا يكفى تحقق الأسباب وحدها للحصول عليه .

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ؟ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ؟ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ، كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) .

شرح المفردات

آوى إليه : أى ضم إليه ، والابتئاس : اجتلاب البؤس والشقاء ، والسقاية (بالكسر) وعاء يسقى به ، و به كان يكال للناس الطعام و يقدّر بكيلة مصرية $\frac{١}{١٢}$

من الإردب المصرى ، وهو الذى عبر عنه بصواع الملك ، وأذّن مؤذن : أى نادى مناد ، من التأذين وهو تكرار الأذان والإعلام بالشيء الذى تدركه الأذن ، والعير : الإبل التى عليها الأحمال والمراد أصحابها ، زعيم : كفيل أجعله جزاء لمن يجيء به ، الكيد : التدبير الذى يخفى ظاهره على المتعاملين به حتى يؤدى إلى باطنه المراد منه ، ودين الملك : شرعه الذى يدين الله تعالى به .

الإيضاح

(ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه) أى لما دخلوا عليه فى مجلسه الخاص بعد دخولهم باحة القصر من حيث أمرهم أبوهم، ضم إليه أخاه الشقيق بنيامين، وقد حصل ما كان يتوقع يعقوب أو فوق ما كان يتوقع من الحدب عليه والعناية التى خصه بها .

(قال إنى أنا أخوك) يوسف الذى فقدتموه صغيرا .

(فلا تبتئس بما كانوا يعملون) أى فلا يلحقنك بعد الآن بؤس أى مكروه ولا شدة بسبب ما كانوا يعملون من الجفاء وسوء المعاملة بحسدهم لى ولك .

روى أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وأصبتم وستجدون أجر ذلك عندى فأنزلهم وأكرمهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيّا لأجلسنى معه ، فقال يوسف بقى أخوكم وحيدا ، فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ، وقال أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتا (حجرة) وهذا لا ثانى له فيكون معى ، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح وسأله عن ولده ،فقال لى عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لى هلك فقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال من يجد أخا مثلك ؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له : إنى أنا أخوك الخ .

(فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه) أى لما قضى لهم حاجتهم ووفاهم كيلهم جعل الإناء الذى يكيل به الطعام فى رحل أخيه .

وفى قوله: جعل السقاية ، إيماء إلى أنه وضعها بيده ولم يكل ذلك إلى أحد من فتيانه كتجهيزهم الأول والثانى لئلا يطلعوا على مكيدته .

(ثم أذن مؤذن) أى وقد افتقد فتيانه السقاية ، لأنها الصواع الذى يكيلون به للممتارين فلم يجدوها ، فأذن مؤذنهم بذلك أى كرر النداء به كدأب الذين ينشدون المفقود فى كل زمان ومكان قائلا :

(أيتها العير إنكم لسارقون) أى يا أصحاب العير قد ثبت عندنا أنكم سارقون فلا ترحلوا حتى ننظر فى أمركم .

(قالوا : وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون؟) أى قال إخوة يوسف للمؤذن ومن معه : أىّ شىء تفقدون ، وما الذى ضل عنكم فلم تجدوه ؟ .

(قالوا نفقد صواع الملك) أى نفقد الصواع الذى عليه شارة الملك .

(ولمن جاء به حمل بعير) أى ولمن أتى به حمل جمل من القمح ، وفى هذا دليل على أن عيرهم كانت الإبل لا الحمير .

(وأنا به زعيم) أى قال المؤذن وأنا كفيل بحمل البعير ، أجعله حُلوانا لمن يجىء به ، سواء أكان مفقودا أم جاء به غير سارقه .

(قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) أى قالوا لقد علمتم بما خبرتموه من أمرنا وسيرتنا من حين مجيئنا فى امتيارنا الأول وحين عودتنا إذ رددنا بضاعتنا التى ردت إلينا مع غيرها ، أننا ماجئنا لنفسد فى أرض مصر بسرقة ولا غيرها مما فيه تعدّ على حقوق الناس .

(قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين) أى قال فتيان يوسف لهم : فما جزاء سارقه إن كنتم كاذبين فى جحودكم للسرق وادعائكم البراءة والنزاهة ؟

(قالوا جزاؤه من وجد فى رحله) أى جزاؤه أخذ من وجد فى رحله وظهر أنه هو السارق له وجعله عبدا لصاحبه ، وقوله :

(فهو جزاؤه) تقرير للحكم السابق وتأكيد له بإعادته ، كما تقول حق الضيف أن يكرم فهو حقه ، والقصد من الأول إفادة الحكم ، ومن الثانى إفادة أن ذلك هو الحق الواجب فى مثل هذا ، وقد كان الحكم فى شرع يعقوب أن يسترق السارق سنة.

(كذلك نجزى الظالمين) أى مثل هذا الجزاء الأوفى نجزى الظالمين للناس بسرقة أمتعتهم وأموالهم فى شريعتنا ، فنحن أشد الناس عقابا للسرّاق .

وهذا تأكيد منهم بعد تأكيد لثقتهم ببراءة أنفسهم .

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) أى فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم التى تشتمل عليها رحالهم ابتعادا عن الشبهة وظن التهمة بطريق الحيلة .

(ثم استخرجها من وعاء أخيه) أى ثم إنه بعد أن فرغ من تفتيش أوعيتهم فتش وعاء أخيه فأخرج السقاية منه .

(كذلك كدنا ليوسف) أى مثل هذا الكيد والتدبير الخفىّ كدنا ليوسف وألهمناه إياه وأوحينا إليه أن يفعله .

ذاك أن الحكمة الإلهية اقتضت تربية إخوة يوسف وعقابهم بما فرّطوا فى يوسف ، واستحقاقهم إتمام النعمة عليهم يتوقف على أخذه بطريق لا جبر فيه ولا تقتضيه شريعة الملك ، وبه يذوقون ألم فراق بنيامين ومرارته ، فيما لا لوم فيه على أحد غير أنفسهم ، ولن يكون هذا الحكم منهم إلا بوقوع شبهة السرقة على بنيامين من حيث لا يؤذيه ذلك ولا يؤلمه ، وقد أعلمه أخوه يوسف به وبغايته . وفى هذا إيماء إلى جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما ظاهره الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف شرعا ثابتاً .

ثم علل ما صنعه الله من الكيد ليوسف بقوله :

(ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) أى وما كان له ولا مما تبيحه أمانته

لملك مصر أن يخالف شرعه الذى فوض له الحكم به وهو لا يبيح استرقاق السارق، فما كان بالميسور له أخذ أخيه من إخوته ومنعه من الرحيل معهم إلا بحكمهم على أنفسهم بشريعة يعقوب التى تبيح ذلك .

ولما كانت هذه الوسيلة إلى تلك الغاية الشريفة منكرة على حسب الظاهر ، لأنها تهمة باطلة ، وكان من شأن يوسف أن يتباعد عنها و يتحاماها إلا بوحى من الله ــ بين أنه فعل ذلك بإذن الله ومشيئته فقال :

(إلا أن يشاء الله) أى إنه فعل ذلك بإذن الله ووحيه ، لا أنه هو الذى اخترع هذه المكيدة .

(نرفع درجات من نشاء) أى نرفع من نشاء درجات كثيرة فى العلم والإيمان ونريه وجوه الصواب فى بلوغ المراد ، كما رفعنا درجات يوسف على إخوته فى كل شىء . وفى هذا إيماء إلى أن العلم أشرف المقامات ، وأعلى الدرجات .

(وفوق كل ذى علم عليم) أى وفوق كل عالم من هو أوسع إحاطة منه وأرفع درجة ، إلى أن يصل الأمر إلى من أحاط بكل شىء علما وهو فوق كل ذى علم .

وخلاصة ذلك ــ أن إخوة يوسف كانوا علماء إلا أن يوسف كان أعلم منهم.

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ، قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩) .

الإيضاح

(قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) أى قال إخوة يوسف ، إن

يسرق بنيامين فقد سرق أخوه يوسف من قبل ، فالسرقة جاءت وراثة من أمهما إذ هما لا ينفردان عنا إلا بها . وفى قولهم هذا إيماء إلى أن الحسد لا يزال كامنا فى قلوبهم ، لاختلاف الأمهات ، ولمزيد محبة الأب لهما .

وأصح ما قيل فى سرقة يوسف ما رواه ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا قال : سرق يوسف عليه السلام صنما لجده أبى أمه من ذهب وفضة فكسره وألقاه فى الطريق فعيّره بذلك إخوته .

وأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف عليه السلام من البلاء فيما بلغنى أن عمته وكانت أكبر ولد إسحاق عليه السلام وكانت إليها منطقة إسحاق إذ كانوا يتوارثونها بالكبر ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف عليه السلام قد حضنته عمته فكان معها ، فلم يحب أحد شيئا من الأشياء كحبها إياه حتى إذا ترعرع ووقعت نفس يعقوب عليه السلام عليه فأتاها فقال يا أخية سلمى إلىّ يوسف ، فوالله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة ، قالت : فوالله ما أنا بتاركته فدعه عندى أياما أنظر إليه لعل ذلك يسلينى عنه ، فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق عليه السلام فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه ، ثم قالت فقدت منطقة إسحاق فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف عليه السلام ، فقالت والله إنه لَسلْمٌ لى أصنع فيه ماشئت ، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها : أنتِ وذاكِ إن كان فعل فهو سلم لك ما أستطيع غير ذلك ، فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت .

وهذا هو الذى عناه إخوته بقولهم (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) وهذه الروايات لايوثق بها كما لايدل شىء منها على سرقة حقيقية .

(فأسرّها يوسف فى نفسه) أى فأضمر مقالتهم فى نفسه ولم يجبهم عنها .

(ولم يبدها لهم) أى ولم يؤاخذهم بها لا قولا ولا فعلا صفحا عنهم وحلما .

ثم فسر ما أسره بقوله :

(قال أنتم شر مكانا) أى لكنه قال فى نفسه أنتم شر فى مكانتكم ومنزلتكم مما تعرّضون به أو تفترونه ، إذ أنكم سرقتم من أبيكم أحب أولاده إليه وعرضتموه للهلاك والرق ، وقلتم لأبيكم قد أكله الذئب الخ .

(والله أعلم بما تصفون) أى والله أعلم منكم بما تصفونه به ، لأنه سبحانه هو العليم بحقائق الأشياء ، فيعلم كيف كانت سرقة الذى أحلتم سرقته عليه .

ثم أرادوا أن يستعطفوه ليطلق لهم أخاه بنيامين فيرجعوا به إلى أبيهم ، لأنه قد أخذ عليهم الميثاق بأن يردوه إليه .

(قالوا يأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا) طاعنا فى السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علالته التى يتعلل بها عن شقيقه الهالك ، أو هو كبير القدر جدير بالرعاية كما علمت مما سلف من قصصه ومن تعلقه به .

(فخذ أحدنا مكانه) أى بدله فلسنا عنده بمنزلته فى المحبة والشفقة عنده .

ثم عللوا ذلك بقولهم :

(إنا نراك من المحسنين) إلينا فى ميرتنا وضيافتنا وتجهيزنا ، فأتم إحسانك ، فما الإنعام إلا بالإتمام ، أو المعنى إن من عادتك الإحسان مطلقا ، فاجر على عادتك ولا تغيرها ، فنحن أحق الناس بذلك .

فأجابهم عن مقالتهم :

(قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) أى حاش لله أن نأخذ إلا من وجدنا الصواع عنده ، لأنا قد أخذناه بفتواكم (من وجد فى رحله فهو جزاؤه) فلا يسوغ لنا أن نخلّ بموجبها .

ولم يقل إلا من سرق متاعنا اتقاء للكذب ، لأنه يعلم أنه ليس بسارق .

(إنا إذا لظالمون) أى إنا إذا أخذنا غيره لظالمون من وجهين : مخالفة شرعكم ونص فتواكم ، ومخالفة شريعة الملك .

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ، فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) .

شرح المفردات

استيأسوا : أي يئسوا يأسا كاملا ، خلصوا : انفردوا عن الناس ، نجيا : أي متناجين متشاورين فيما يقولون لأبيهم ، كبيرهم : أي في الرأي والعقل وهو يهوذا ، وموثقا : أي عهدا يوثق به وهو حلفكم بالله ، فرطتم : قصرتم في شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه ، أبرح : أفارق ، أمرا : أي كيدا آخر ، تولى : أعرض ، والأسف : أشد الحزن والحسرة على ما فات ، كظيم : أي مملوء غيظا على أولاده ممسك له في قلبه ، القرية : اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس وللناس جميعا ، ويستعمل في كل واحد منهما قاله الراغب .

الإيضاح

(فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا) أي فلما استحكم اليأس في أنفسهم من قبول العزيز لشفاعتهم واستعطافهم بعد أن أقام الحجة عليهم بشرعهم وفتواهم وأنه إن فعل

غيره يكون ظالما بمقتضى شريعتهم وشريعة ملك مصر - اعتزلوا الناس ولم يخالطوا أحدا ، وانفردوا للمناجاة والتشاور فى أمرهم .

وخلاصة ذلك — إن أولئك الإخوة العشرة بعد أن انتهى كبيرهم من استعطاف العزيز وعدم جدوى ما فعل ، غادر كل منهم رحله وانضم بعضهم إلى بعض وأدنى رأسه من رأسه وأرهفوا آذانهم للنجوى .

(قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله) أى قال كبيرهم عقلا ورأيا وهو يهوذا : ألم تعلموا أيها القوم أن أباكم يعقوب قد أخذ عليكم عهد الله وميثاقه لتردنّه إليه إلا أن يحاط بكم ، وقد رأيتم كيف تعذر ذلك عليكم .

(ومن قبل مافرطتم فى يوسف) أى ومن قبل هذا قد قصرتم فى حفظ يوسف بعد وعدكم المؤكد بحفظه ، وكيف إن أباكم قد قاسى من أجله من الحزن ما قاسى .

(فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى) أى فلن أفارق أرض مصر ، حتى يأذن لى أبى بتركها والرجوع إليه وبنيامين فيها ، أو يحكم الله لى بأمر من عنده مما هو غيب فى علمه ، كأن يترك العزيز لى أخى بإلهام منه تعالى أو بسبب آخر .

(وهو خير الحاكمين) لأنه لايحكم إلا بما هو الحق والعدل ، وهو المسخر للأسباب والمقدر للأقدار .

ثم أمرهم بأن يقولوا لأبيهم ما يزيلون به التهمة عن أنفسهم قال :

(ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق) صواع الملك فاسترقه وزيره العزيز القائم بالأمر فى مصر عملا بشريعتنا ، إذ نحن أنبأناه بها بعد أن استنبأنا إياها.

(وما شهدنا إلا بما علمنا) أى وما شهدنا عليه بالسرقة بسماع أو إشاعة أو تهمة بل ما شهدنا إلا بما علمنا إذ رأينا الصواع قد استخرج من متاعه .

(وما كنا للغيب حافظين) فنعلم أنه سيسرق حين أعطيناك المواثيق ، ولو كنا نعلم ذلك لما آتيناك العهد الموثق علينا .

(واسأل القرية التى كنا فيها) أى واسأل أهل القرية التى كنا نمتار فيها وهى مصر، فقد اشتهر فيهم أمر هذه السرقة حتى لو سئلوا لشهدوا .

(والعير التى أقبلنا فيها) أى واسأل أصحاب العير الذين كانوا يمتارون معنا .

ثم أكدوا صدق مقالهم بقولهم :

(وإنا لصادقون) فيما أخبرناك به ، سواء أسألت غيرنا أم لم تسأل ، إذ أن من عادتنا الصدق فلا نخبرك إلا به ولا نظنك فى مرية من هذا .

وبعد أن انتهى تعالى من سرد مقال كبيرهم عاد إلى ذكر مقال أبيهم فقال :

(قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا) أى فرجع الإخوة إلى أبيهم وقالوا له ما لقنهم كبيرهم فلم يصدقهم فيما قالوا ، بل قال لهم بل زينت لكم أنفسكم كيدا آخر فنفذتموه ، ومما يقوّى ذلك عندى أنكم لقنتم هذا الرجل حكم شريعتنا وأفتيتموه به وليس ذلك من شريعته .

(فصبر جميل) أى فحالى على ما نالنى من فقده صبر جميل لاجزع فيه ولاشكاية لأحد ، بل أشكو إلى الله وحده وأعلق رجائى به .

(عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) أى أطلب من الله أن يرجع إلىّ يوسف وبنيامين والأخ الثالث الباقى بمصر ، وقد كان لديه إلهام بأن يوسف لم يمت وإن غاب عنه خبره .

(إنه هو العليم الحكيم) أى إنه العليم بوحدتى وفقدهم والحزن عليهم ، وله فينا حكمة بالغة وهو الحكيم فى أفعاله فيبتلى ويرفع البلاء على مقتضى سننه وحكمته فى تدبير خلقه ، وقد جرت سنته أن الشدة إذا تناهت جعل وراءها فرجا والمصيبة إذا عظمت جعل بعدها المخلص منها . كما قال (فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا) .

(وتولى عنهم) أى أعرض عنهم كراهة لما جاءوا به .

(وقال يا أسفا على يوسف) أى ياحزنى وياحسرتى عليه أقبلى فهذا وقتك

والحال مقتضية لك ، فقد كنت أنتظر أن يأتونى من مصر ببشرى لقاء يوسف ، فخاب أملى وحل محله ذهاب ابنى المسلى عنه ، ولم يشرك معه بنيامين بالأسف عليه ، لأن مكان حب يوسف والرجاء فيه قد ملأ سويداء القلب وزواياه ، ومحل غيره دون ذلك .

(وابيضت عيناه من الحزن) أى أصابتهما غشاوة بيضاء غطت على البصر مع بقاء العصب الذى يدرك المبصرات سليما معافى ، قال الدكتور عبدالعزيز إسماعيل باشا: البياض المصحوب بضياع البصر غالبا معناه (الجلوكوما) والمعروف عند الاختصاصيين فى أمراض العيون أن أهم سبب لها هو التغيرات فى الأوعية الشعرية نتيجة لأسباب كثيرة من أهمها الانفعالات العصبية (كما يحدث فى زيادة ضغط الدم) لاسيما الحزن (الدكتور ملر) اه .

(فهو كظيم) أى مملوء غيظا على أولاده ، يردد حزنه فى جوفه ولا يتكلم بسوء ؛ والحزن عرض طبيعى للنفس ولا يذم شرعا إلا إذا بلغ بصاحبه أن يقول أو يفعل ما لا يرضى الله تعالى ، ومن ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم عند موت ولده إبراهيم وقد جعلت عيناه تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف وأنت يارسول الله : « ياابن عوف إنها رحمة » ثم أتبعها بأخرى فقال : « إن العين تدمع والقلب يخشع ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم محزونون » رواه الشيخان وغيرهما .

وفى التفسير بالمأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن داود عليه السلام قال : يارب إن بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فاجعلنى لهم رابعا ، فأوحى الله إليه أن : ياداود إن إبراهيم ألقى فى النار بسببى فصبر ، وتلك بلية لم تنلك ، وإن إسحاق بذل مهجة دمه بسببى فصبر ، وتلك بلية لم تنلك ، وإن يعقوب أخذت منه حبيبه فابيضت عيناه من الحزن ، وتلك بلية لم تنلك » قال الحافظ ابن كثير : وهذا حديث مرسل وفيه نكارة ، فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح اه.

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)

شرح المفردات

تفتأ : أى لاتفتأ بمعنى لا تزال ، والحرض : المرض المشفى على الهلاك ، من الهالكين : أى الميتين ، البث فى الأصل: إثارة الشيء وتفريقه كبث الريح التراب، ثم استعمل فى إظهار ما انطوت عليه النفس من الغم أو السر ، وتحسسوا: أى تعرفوا أخبار يوسف بحواسكم من سمع و بصر ، والروح : التنفس ، يقال أراح الإنسان إذا تنفس ، ثم استعمل للفرج والتنفيس من الكرب .

الإيضاح

(قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) أى قال ولد يعقوب الذين جاءوا من مصر حين قال يا أسفا على يوسف : تالله لا تزال تذكر يوسف وتلهج به حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه أو تموت من الغم .

وخلاصة ذلك ـ إنك الآن فى بلاء شديد ونخاف أن يحصل لك ما هو أكثر وأقوى منه ، وهم يريدون بذلك منعه من البكاء والأسف .

فأجابهم والتمس لنفسه معذرة على الحزن :

(قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) أى لا تلومونى وأنا لم أشك إليكم

ولا إلى أحد من الخلق حزنى الذى أمضى كتمانه ، فأفشيته بهذه الكلمة (يا أسفا على يوسف) بل شكوت ذلك إلى الله وحده .

(وأعلم من الله ما لاتعلمون) أى وأنا أعلم فى ابتلائى بفراقه مع حسن عاقبته مالاتعلمون ، فأعلم أنه حىّ يرزق ، وأن الله يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب ، وأنتم تظنون أن يوسف قد هلك ، وأن بنيامين قد سرق فاسترقّ ، وتحسبون أنى بحزنى ساخط على قضاء الله فى شىء أمضاه ولا مردّ له ، وأنا أعلم أن لهذا أجلا هو بالغه ، وإنى لأرى البلاء ينزل عليكم من كل جانب بذنوبكم وبتفريطكم فى يوسف من قبل ، وبأخيه الذى كان يسليني عنه من بعد .

وعن ابن عباس فى تفسير الآية: أنا أعلم أن رؤيا يوسف حق وأننى سأسجد له .

(يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) أى اذهبوا إلى مصر وتعرفوا أخبارهما بحواسكم من سمع وبصر حتى تكونوا على يقين من أمرهما .

(ولا تيأسوا من روح الله) أى لا تقنطوا من فرجه سبحانه وتنفيسه عن النفس هذا الكرب ، بما ترتاح إليه الروح ويطمئن به القلب .

(إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) بقدرته وسعة رحمته ويجهلون ما لله فى عباده من حكم بالغة ولطف خفى ، فإذا لم يصلوا إلى ما يبتغون من كشف ضر أو جلب خير بخعوا أنفسهم (انتحروا) هما وحزنا .

أما المؤمن حقا فلاتقنطه المصايب ولا الشدائد من رحمة ربه وتفريجه لكربه ، ومن ثم قال ابن عباس : إن المؤمن من الله تعالى على خير يرجوه فى البلاء ويحمده فى الرخاء .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ

(٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩)
قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ؟ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ
لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ
الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي
هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) .

شرح المفردات

الضر : أى ضر المجاعة من الهزال والضعف ، والمزجاة الرديئة التى يدفعها التجار من أزجى الشىء وزجاه: إذا دفعه برفق كما قال : «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا» وآثرك : أى اختارك وفضلك ، والخاطئ : هو الذى يأتى بالخطيئة عمدا ، والمخطئ : من إذا أراد الصواب صار إلى غيره ، والخطء : الذنب ، وخطّأته: قلت له أخطأت ، ولا تثريب : أى لا لوم ولا تأنيب وثرّب فلان على فلان إذا عدّد عليه ذنوبه ، ويأت بصيرا : أى يصر بصيرا فى الحال ، أو يأت إلىّ وهو بصير .

الإيضاح

(فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) أى بعد أن قبلوا وصية أبيهم حين قال لهم اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، وعادوا إلى مصر ــ دخلوا على يوسف عليه السلام فقالوا له يأيها العزيز أصابنا الهزال والضعف لما نحن فيه من المجاعة وكثرة العيال وقلة الطعام وقد شكوا إليه رقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة وغير ذلك مما يرقق القلب مع أن مقصدهم التحسس من يوسف وأخيه ــ ليروا

تأثير الشكوى فيه ، فإن رق قلبه لهم ذكروا ما يريدون وإلا سكتوا وقد كان أبوهم يرجح أنه هو يوسف ، فأرادوا أن يروا تأثير هذا الاستعطاف فيه .

(وجئنا ببضاعة مزجاة) أى ببضاعة رديئة يحتقرها التجار ويدفعونها احتقارا لها .

(فأوف لنا الكيل) أى فأتمه كما تعودنا من جميل رعايتك وإحسانك .

(وتصدّق علينا) بما تزيده على حقنا ببضاعتنا بعد أن تغمض عن رداءتها .

(إن الله يجزى المتصدّقين) فيخلف ما ينفقون ويضاعف الأجر لهم .

وقد بالغوا فى الضراعة والتذلل لما كانوا يريدون من تأثير ذلك فى ملامح وجهه وجرْس صوته ومغالبة دمعه .

ثم بعد أن ذكر طريق تحسسهم ذكر رد يوسف عليهم .

(قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) أى قال ما أعظم ما فعلتم بيوسف من قبل وبأخيه بنيامين من بعد على قرب العهد ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ، كما يقال للمذنب هل تدرى من عصيت ، وهل تعرف من خالفت .

(إذ أنتم جاهلون) قبح ما فعلتموه فى حكم شرعكم ، وحقوق بر الوالدين وما يجب من رحمة القرابة والرحم .

وخلاصة ذلك — إنكم كنتم فى حال يغلب عليكم فيها الجهل بهذه الحقوق وبعاقبة البغى والعقوق .

وقد يكون المراد من الجهل الطيش والنزق واتباع الهوى وطاعة الحسد والأثرة .

وقد قال لهم هذه المقالة تمهيدا لتعريفهم بنفسه ، إذ آن أن يصارحهم به بعد أن بلغ الكتاب أجله وبلغت به وبهم الأقدار غايتها ولم يبق بعد هذا إلا التصريح وتأويل رؤياه التى كانت السبب فى كل ما حدث من تلك الأفاعيل .

وقد ذكّر يوسف إخوته بذنوبهم تذكيرا مجملا قبل أن يتعرف إليهم بذكر

العذر وهو الجهل بقبح الذنب فى ذاته وبسوء عاقبته لتمكن نزغ الشيطان من أنفسهم الأمارة بالسوء ، وقد ذكّرهم بطريق سؤال العارف المتجاهل على طريق التمرير لا التقريع والتوبيخ كما يدل عليه نفى التثريب والدعاء بالمغفرة .

قال صاحب الكشاف فى تفسير الآية : أتاهم من جهة الدين وكان حليما موفقا فكلمهم مستفهما عن معرفة وجه القبح الذى يجب أن يراعيه التائب ، فقال هل علمتم قبح (ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) لا تعلمون قبحه فلذلك أقدمتم عليه ـ يعنى هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه ؟ لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجر إلى التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحا لهم فى الدين لا معاتبة وتثريبا ، إيثارا لحق الله على حق نفسه فى ذلك المقام الذى يتنفس فيه المكروب ، وينفث المصدور ، ويتشفى المغيظ المحنق ، ويدرك ثأره الموتور ، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها ، ولله حصا عقولهم ما أوزنها وأرجحها اهـ .

كان سؤاله إياهم عما فعلوا بيوسف وأخيه وهو سؤال العارف بأمرهم فيه من البداءة إلى النهاية ـ مصدقا لما أوحاه الله إليه حين ألقوه فى غيابة الجب من قوله « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ » إذ يبعد أن يعرف هذا سواه ، فأرادوا أن يتثبتوا من ذلك ويستيقنوا به فوجهوا إليه سؤالا هو سؤال المتعجب المستغرب لما يسمع .

(قالوا أئنك لأنت يوسف؟) أى قالوا من المؤكد قطعا أنك أنت يوسف ـ عجبوا من أنهم يترددون عليه مدى سنتين أو أكثر وهم لا يعرفونه وهو يعرفهم ويكتم نفسه .

(قال أنا يوسف) الذى ظلمتمونى غاية الظلم وقد نصرنى الله فأكرمنى وأوصلنى إلى أسمى المراتب ، أنا ذلك العاجز الذى أردتم قتله بإلقائه فى غيابة الجب ثم صرت إلى ما ترون .

(وهذا أخى) الذى فرّقتم بينى وبينه وظلمتموه ثم أنعم الله عليه بما تبصرون .

(قد منّ الله علينا) فجمع بيننا بعد الفرقة ، وأعزنا بعد الذلة ، وآنسنا بعد الوحشة ، وخلصنا مما ابتلينا به .

وفيه إيماء إلى أنه لا وجه لطلبكم بنيامين لأنه أخى لا أخوكم .

تنبيـــه

فإن قيل لم لم يعرّف يوسف إخوته بنفسه فى أول مرة ليبشروا أباهم به و بما هو عليه من حسن حال و بسطة جاه فيكون فى ذلك السرور كل السرور له ؟ فالجواب عن ذلك ماأجاب به ابن القيم فى كتابه [الإغاثة الكبرى] قال رحمه الله : لو عرّفهم بنفسه فى أول مرة لم يقع الاجتماع بهم و بأبيه ذلك الموقع العظيم ولم يحلّ ذلك المحل ، وهذه عادة الله فى الغايات العظيمة الحميدة ، إذا أراد أن يوصل عبده إليها هيأ له أسبابا من المحن والبلايا والمشاقّ ، فيكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها كوصول أهل الجنة إليها بعد الموت وأهوال البرزخ والبعث والنشور والموقف والحساب والصراط ومقاساة تلك الأهوال والشدائد ، وكما أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ذلك المدخل العظيم بعد أن أخرجه الكفار ذلك المخرج، ونصره ذلك النصر العزيز بعد أن قاسى مع أعداء الله ما قاساه . وكذلك ما فعل برسله كنوح و إبراهيم وموسى وهود وصالح وشعيب عليهم السلام .

فهو سبحانه يوصل إلى الغايات الحميدة بالأسباب التى تكرهها النفوس وتشق عليها كما قال « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببا ما مثله سبب .

و بالجملة فالغايات الحميدة فى خبايا الأسباب المكروهة الشاقة ، كما أن الغايات المكروهة فى خبايا الأسباب المشتهاة المستلذة ، وهذا من حين خلق الله سبحانه الجنة وحفها بالمكاره والنار وحفها بالشهوات اهـ .

(إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين) أى إن الحق الذى نطقت به الشرائع وأرشدت إليه التجارب هو : من يتق الله فيما به أمر وعنه نهى ، ويصبر على ما أصابه من المحن وفتن الشهوات والأهواء ، فلا يستعجل الأقدار بشىء قبل أوانه ، فإن الله لايضيع أجره فى الدنيا ثم يؤتيه أجره فى الآخرة .

وفى الآية شهادة له من ربه بأنه من المحسنين المتقين الله ، وبأن من كان مطيعا لنفسه الأمارة بالسوء ومتبعا لنزغات الشيطان فان عاقبته الخزى فى الدنيا والنكال فى الآخرة ، إلا من تاب وعمل صالحا ثم اهتدى .

(قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) أى قال إخوة يوسف له : لقد فضلك الله علينا وآثرك بالعلم والحلم والفضل .

(وإن كنا لخاطئين) أى وما كنا فى صنيعنا بك وتفريقنا بينك وبين أخيك إلا متعمدين للخطيئة ، ولا عذر لنا فيها عند الله ولا عند الناس .

وبعد أن قدموا له المعذرة أجابهم بالصفح عما فعلوا .

(قال لاتثريب عليكم اليوم) أى لا لوم ولا تعنيف عليكم فى هذا اليوم الذى هو مظنته ، ولكن لكم عندى الصفح والعفو . وهو إذا لم يثرّب أول لقائه واشتعال ناره ، فبعده أولى .

وقال السيد المرتضى : إن كلمة (اليوم) موضوعة موضع الزمان كله كقوله :

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا		واليوم نتبع من كانوا لنا تبعا

كأنه أريد بعد اليوم اهـ .

(يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) أى يعفو الله لكم عن ذنبكم وظلمكم ويستره عليكم ، وهو أرحم الراحمين لمن أقلع عن ذنبه وأناب إلى طاعته بالتوبة من معصيته .

وقد تمثل النبى صلى الله عليه وسلم بالآية يوم فتح مكة حين طاف بالبيت وصلى ركعتين ، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتى الباب وقال : « ماذا تظنون أنى

فاعل بكم ؟ قالوا نظن خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : وأنا أقول كما قال أخي يوسف (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ) ، فخرجوا كأنما نشروا من القبور » . أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس والبيهقي عن أبي هريرة .

روى أن يوسف عليه السلام لما عرّف نفسه إخوته سألهم عن أبيهم فقالوا ذهب بصره فعند ذلك أعطاهم قميصه وقال :

(اذهبوا بقميصي هذا) الذي على بدني أو بيدي .

(فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا) أي ألقوه على وجهه حين وصولكم إليه دون تأخير يصر بصيرا ، وقد علم هذا إما بوحي من الله ، وإما لأنه علم أن أباه ما أصابه ما أصابه إلا من كثرة البكاء وضيق النفس فإذا ألقي عليه قميصه شرح صدره وسر أعظم السرور ، وقوى بصره وزالت منه هذه الغشاوة التي رانت عليه ، والقوانين الطبية تؤيد هذا ، كما سيأتي بعد .

(وائتوني بأهلكم أجمعين) من الرجال والنساء والذراري وغيرهم ، وقد روى أن أهله كانوا سبعين رجلا وامرأة وولدا .

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) .

شرح المفردات

يقال فصل عن البلد : إذا انفصل وجاوز حيطانه ، وتفندون : أي تنسبوني إلى

الفند: وهو فساد الرأى وضعف العقل والخرف من الكبر ، فى ضلالك : أى فى خطئك أو فى إفراطك فى حبه والإصرار على اللهج به ، وارتد : أى رجع .

الإيضاح

(ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) أى ولما انفصلت عير بنى يعقوب عن حدود مصر قافلة إلى أرض الشام ، قال أبوهم لمن حضره من حفدته ومن غيرهم : إنى لأشم رائحة يوسف كما عرفتها فى صغره ، لولا أن تنسبونى إلى ضعف الرأى وفساد العقل وخرف الكبر ، لصدقتمونى فى أنى أجد رائحته حقيقة وأنه حى قد قرب موعد لقائه والتمتع برؤيته .

وروى عن ابن عباس أنه لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف ، قال إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ، فوجد ريحه من ثمانية أيام ، وفى رواية من ثمانين فرسخا ، والمراد من مسافات بعيدة جدا .

(قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم) أى قال حاضرو مجلسه : تالله إنك لفى خطئك الذى طال أمده باعتقادك أن يوسف حى يرجى لقاؤه وقد قرب .

ولا غرو فللخَلِىِّ أن يقول فى الشجِىِّ ما شاء ، فأذنه عن العذل صماء

سلوتى عنكم احتمال بعيد واقتضاحى بكم ضلال قديم

كل من يدعى المحبة فيكم ثم يخشى الملام فهو مليم

قال قتادة فى تفسيرها : تالله إنك لفى ضلالك القديم أى من حب يوسف لاتنساه ولا تسلوه اهـ ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها له .

(فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا) أى فلما جاء البشير وهو ابنه يهوذا الذى يحمل القميص من يوسف (وهو الذى حمل إليه قميصه الملطخ بالدم الكذب) ليمحو السيئة بالحسنة ، ألقاه على وجه يعقوب فعاد من فوره بصيرا كما

كان ـ بل قد قيل إنه عادت إليه سائر قواه ، وليس ذلك بعجيب ولا منكر ، فكثيرا ما شفى السرور من الأمراض وجدد قوى الأبدان والأرواح ، والتجارب وقوانين الطب شاهدصدق على صحة ذلك . قال الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا : لاتتحسن أعراض مرض (الجولكوما) أو شدة توتر العين أو تقف شدته إلا بالعلاج ، ومنه العمليات الجراحية ، ولكن شفاء سيدنا يعقوب بوضع القميص على وجهه هو معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الإنسان ، وليس المهم هو القميص أو وضعه على وجهه ، فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب ، ولكن المهم هو طريقة الشفاء وهى إرادة الله المنحصرة فى (كن فيكون) وهى خارجة عن كل السنن الطبيعية التى أمر الإنسان أن يتعلمها ، فعظمة المعجزة ليست فى النتيجة فحسب ولكن فى طريق الشفاء ـ وما أعظم إعجاز القرآن الذى وصف حالة مرضية خاصة و بين سببها ، ولم يكن يعلم العالم شيئا عن هـــذا المرض فى ذلك الوقت ولا بعده بزمن طويل اه .

وقد أجاب يعقوب من لاموه بما كان عليه من علم قطعى من ربه بصدق مايقول.

(قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالاتعلمون ؟) أى قال لهم : ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر وأمرتكم بالتحسس ونهيتكم عن اليأس من روح الله : إنى أعلم بوحى الله لامن خطرات الأوهام ما لاتعلمون من حياة يوسف عليه السلام ـ وقد ذكرهم الآن إذ عاد بصيرا بما كان قد قاله لهم حين ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم .

نبذة فى تعليل شم يعقوب رائحة يوسف

أثبت العلم حديثا أن الريح تحمل الغبار وما فيه من قارة إلى أخرى ، فتحمله من إفريقية مثلا إلى أوربا وهى مسافة أبعد مما بين مصر وأرض كنعان من بلاد الشام وهى بلا شك تحمل رائحة ماله منها رائحة ، ولكن الغريب شم البشر لها من المسافات البعيدة ، والإنسان إذا قيس بغيره من الوحوش والحشرات كان أضعف منها شما ، فالكلب ذو حاسة قوية فى الشم حتى ليدرّ به الآن رجال الشرطة ويستخدمونه فى حوادث الإجرام من قتل وسرقة لإثبات التهمة على المجرمين ، فيأتون بالكلب المعلم فيشَمّ المجرم ويخرجه من بين أشخاص كثيرين ، ويرى ذلك رجال القانون دليلا قويا على إثبات الجريمة على من يرشد إليه ، بل دليلا قاطعا فى بعض الدول .

والروائح منها القوى والضعيف ، ومن أضعفها رائحة جسم الإنسان وعرقه وما يصيب ثوبه منها ، ولكن مانحن فيه من خوارق العادات ومن خواص عالم الغيب لامن السنن العادية والحوادث التى تتكرر من البشر .

وقد دلت الآية على أن يعقوب عليه السلام أخبر أنه وجد رائحة يوسف لما فصلت العير من أرض مصر ، فعلينا أن نؤمن به لأنه معصوم من الكذب ، وقد تبين صدقه بعد ، وليس بالواجب علينا أن نعرف كنهه أو نصل إلى معرفة سببه ، ولكن إذا نحن قلنا إنه لشدة تفكره فى أمر ولده وتذكره لرائحته حين كان يضمه ويشمه ـ شعر بتلك الرائحة قد عادت له سيرتها الأولى ـ لم يكن ذلك مجانبا للصواب ولا معارضا للعقل ولا ناقضا لما يثبته العلم ، أو قلنا بأنا نتقبل هذا بدون تعليل ولا تصوير لكيفية ذلك ـ لم نبعد عن العقل ولا عن العلم ، إذ لاخلاف بين العلماء فى أن مايجهله الباحثون أضعاف مايعرفونه .

وعلى الجملة فعلينا التسليم بما أخبر به دون حاجة للبحث فى كنهه أو صفته مادام ذلك داخلا فى حيز الإمكان .

(قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) أى قال أولاده وكانوا قد وصلوا إثر البشير . يا أبانا اسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا التى اجترحناها من عقوقك وإيذاء أخوينا ، إنا كنا متعمدين لهذه الخطيئة ، عاصين لله ، ظانين أن نكون بعدها قوما صالحين .

الآن اعترفوا بذنوبهم كما اعترفوا ليوسف من قبل ، لكن يوسف بادر إلى الاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه ، وعليك أن تسمع جواب أبيهم الآتى :

(قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) وعدهم بالاستغفار لهم فى مستأنف الزمان ، وعلل هذا بأن ربه واسع المغفرة والرحمة ، لا ينقطع رجاء المؤمن فيها وإن ظلم وأساء .

والفارق بين جواب يعقوب وجواب يوسف من وجوه كثيرة اقتضتها الحكمة:

(١) إن حال أبيهم معهم حال المربى المرشد للمذنب ، لا حال المنتقم الذى يخشى أذاه ، وليس من حسن التربية ولا من طرق التهذيب أن يريهم أن ذنبهم هين لديه حتى يعجل بإجابة مطلبهم بالاستغفار لهم .

(٢) إن ذنبهم لم يكن موجها إليه مباشرة ، بل موجه إلى يوسف وأخيه ، ثم إليه بالتبع واللزوم ، إلى أنه ليس من العدل أن يستغفر لهم إلا بعد أن يعلم حالهم مع يوسف وأخيه ، ولم يكن يعقوب قد علم بعفو يوسف عنهم واستغفاره لهم .

(٣) إن هذا ذنب كبير وإثم عظيم طال عليه الأمد وحدثت منه أضرار نفسية وخلقية وأعمال كان لها خطرها ، فلا يمّحى إلا بتوبة نصوح تجتث الجذور التى علقت بالأنفس والأرجاس التى باضت وأفرخت فيها .

فلا يحسن بعدئذ من المربى الحكيم أن يسارع إلى الاستغفار لمقترفها عقب طلبه حتى كأنها من هينات الأمور التى تغفر ببادرة من الندم ، ومن ثم تلبث فى الاستغفار لهم إلى أجل ليعلمهم عظيم جرمهم وأعلمهم بأنه سوف يتوجه إلى ربه ويطلب لهم الغفران منه بفضله ورحمته .

(٤) إن حال يوسف معهم كان حال القادر بل المالك القاهر مع مسىء ضعيف لديه ، عظم جرمه عليه ، فلم يشأ أن يكون الغفران بشفاعته ودعائه ، فآمنهم من خوف الانتقام تعجيلا للسرور بالنعمة الجديدة التى جعل الله أمرها بين يديه ، وليروا ويرى الناس فضل العفو عند القدرة ، وليكون لهم فى ذلك أحسن الأسوة ، وفى هذا من ضروب التربية أكبر العظة والعبرة ، ولو أخر المغفرة لكانوا فى وجل مما سيحل بهم ولخافوا شر الانتقام ، فكانوا فى قلق دائم وتبلبل بال واضطراب نفس فكانت معرفتهم له عذابا فوق العذاب الذى هم فيه ، ولكن شاءت رحمته بهم أن يجعل السرور عاما والحياة الجديدة حافلة بالاطمئنان وقرة العين ، وهكذا شاءت الأقدار وشاء الله أن يكون ذلك وهو العليم الحكيم .

تأويل رؤيا يوسف من قبل

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) .

شرح المفردات

آوى إليه أبويه : أى ضمهما إليه واعتنقهما ، ورفع أبويه : أى أصعدهما ، والعرش كرسى تدبير الملك لا كل سرير يجلس عليه الملك وخروا له سجدا : أى أهوى أبواه

وإخوته إلى الأرض وخروا له سجدا ، تأويل رؤياى : أى مآلها وعاقبتها ، وأصل النزغ : نخس الرائض الفرس بالمهماز لإزعاجه للجرى ، ثم قيل نزغه الشيطان كأنه نخسه ليحثه على المعاصى ، ونزغ بين الناس : أفسد بينهم بالحث على الشر .

المعنى الجملى

بعد أن أخبر فيما سلف أن يوسف قال لإخوته ائتونى بأهلكم أجمعين ـ أخبر هنا أنهم رحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف بقرب مجيئهم خرج للقائهم ، وأمر الملك أمراءه وأكابر دولته بالخروج معه للقاء نبى الله يعقوب عليه السلام .

الإيضاح

(فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه) فى العبارة حذف وإيجاز يفهم من سياق الكلام والمعنى ـ بعد أن ذهب إخوة يوسف إلى أبيهم وأخبروه بمكانة يوسف فى مصر وأنه الحاكم المفوض المستقل فى أمرها ـ أبلغوه أنه يدعوهم كلهم للإقامة معه فيها والتمتع بحضارتها فرحلوا حتى بلغوها ـ ولما دخلوا على يوسف وكان قد استقبلهم فى الطريق فى جمع حافل احتفاء بهم ضم إليه أبويه واعتنقهما .

وظاهر الآية يدل على أن أمه كانت لاتزال حية ورجحه ابن جرير ، وقال جمع من المفسرين إن المراد بأبويه أبوه وخالته ، لأن أمه قد ماتت قبل ذلك فتزوج أبوه خالته .

(وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) أى وقال لهم ادخلوا بلاد مصر إن شاء الله آمنين على أنفسكم وأنعامكم من الجوع والهلاك ، فإن سنى القحط كانت لاتزال باقية ، وذكر المشيئة فى كلامه للتبرؤ من مشيئته وحوله وقوته إلى مشيئة الله الذى سخر ذلك لهم وسخر ملك مصر وأهلها له ثم لهم ، وهذا من شأن المؤمنين ولا سيما الأنبياء والصديقون .

وفى سفر التكوين من التوراة أن يوسف عليه السلام عرّف نفسه إلى إخوته عقب مجيئهم ببنيامين شقيقه وأرسلهم لاستحضار أبويه وأهلهم ، فجاءوا فأقطعهم أرض جاسان (إقليم الشرقية الآن) وأرسل إليهم العربات لتحملهم وأحمال الغذاء والثياب على الحمير ، فلما وصلوا إليها شد يوسف على مركبته وصعد ليلاقى إسرائيل أباه فى جاسان ، فلما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه و بكى طويلا ، ثم استأذنهم ليذهب إلى فرعون ويخبره بمجيئهم ومكانهم ليقرهم عليه ، لأنهم رعاة وأرض جاسان خصبة ففعل ، ثم أخذ وفدا منهم لمقابلة فرعون وأدخل أباه عليه فبارك فرعون .

ومن هذا يتبين أن هذا اللقاء كان هو الأول لهم ، و بعد لقاء فرعون قال لهم ادخلوا مصر ثم عاد بهم إلى قصره الخاص .

(ورفع أبويه على العرش) أى أصعد أبويه إلى السرير الذى كان يجلس عليه لتدبير أمر الملك تكرمة لهما فوق ما فعله بالإخوة .

(وخروا له سجدا) أى أهوى أبواه و إخوته وخروا له سجودا ، وكان ذلك تحية الملوك والعظماء فى عهدهم ، ومن ثم سجد يعقوب لأخيه عيسو حين تلاقيا بعد تفرق .

والسجود ليس عبادة بذاته ، وإنما يكون كذلك بالنية والتزام الصفة الشرعية فيه .

(وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل) أى هذا السجود منكما ومن إخوتى الأحد عشر هو المآل والعاقبة التى آلت إليها رؤياى التى رأيتها من قبل فى صغرى « إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ » .

(قد جعلها ربى حقا) أى قد جعلها ربى حقيقة واقعة واستبان أنها لم تكن أضغاث أحلام ، فالكواكب الأحد عشر مثال إخوتى الأحد عشر ، وأنت وأمى مثال الشمس والقمر ، ولا بدع فى ذلك فهذه الأسرة هى التى حفظ الله بها ذرية إسحاق بن إبراهيم لتنشر دين التوحيد بين العالمين فكانت خير أسر البشر جميعا .

(وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو) أى وقد أحسن بى ربى إذ أخرجنى من السجن وسما بى إلى عرش الملك ، وجاء بكم من البادية حيث كنتم تعيشون فى شظف العيش وخشونته ، ونقلكم إلى الحضر حيث تعيشون فى نعم الاجتماع ونشر الدين الحق ، وتتعاونون على ترقى العلوم والصناعات .

ولم يذكر له إخراجه من الجب لوجوه :

(١) إنه ذكر آخر المحن المتصلة بنهاية النعم .

(٢) إنه لو ذكر حادث الجب لكان فى ذلك تثريب لإخوته وقد قال (لا تثريب عليكم اليوم) .

(٣) إنه بعد خروجه منه صار عبدا لا ملكا .

(٤) إنه بعد خروجه منه وقع فى مضارّة تهمة المرأة التى بسببها دخل السجن .

وعلى الجملة فالنعم الكاملة إنما حصلت بعد خروجه من السجن .

(من بعد أن نزغ الشيطان بينى و بين إخوتى) أى من بعد أن أفسد الشيطان ما بينى و بين إخوتى من عاطفة الأخوّة ، وقطع ما بيننا من وشيجة الرحم ، وهيج الحسد والشر .

(إن ربى لطيف لما يشاء) أى إن ربى عالم بدقائق الأمور رفيق بعباده ، فينفذ ما يشاء فى خلقه بحكمته البالغة ، فمن ذا الذى كان يدور بخلده أن الإلقاء فى الجب يعقبه الرق ، و يتلو الرق فتنة العشق ، ومن أجله يزجّ فى غيابات السجن ، ومن ذا إلى السيادة والملك .

(إنه هو العليم الحكيم) أى إنه هو العليم بمصالح عباده فلا تخفى عليه مبادئ الأمور وغاياتها ، الحكيم الذى يفعل الأمور على وجه الحكمة والمصلحة ، فيجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، ويجعل العاقبة للمتقين .

و بعد أن حمد يوسف ربه على لطفه فى مشيئته وعلمه وحكمته ـ تلا ذلك بالدعاء فقال :

طلب يوسف من ربه حسن الخاتمة

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) .

الإيضاح

(رب قد آتيتنى من الملك) أى قال يوسف بعد ماجمع الله له أبويه وإخوته ، وبسط عليه من الدنيا ما بسط من الكرامة ، ومكن له فى الأرض : رب قد آتيتنى ملك مصر وجعلتنى متصرفا فيها بالفعل وإن كان لغيرى بالاسم ، ولم يكن لى فيها حاسد ولا باغ إذ أجريت الأمور على سنن العدل ووفق الحكمة والسداد .

(وعلمتنى من تأويل الأحاديث) أى وعلمتنى ما أعبر به عن مآل الحوادث ومصداق الرؤى الصحيحة فتقع كما قلت وأخبرت .

(فاطر السموات والأرض) أى مبدعهما وخالقهما .

(أنت وليي فى الدنيا والآخرة) أى أنت متولى أمورى ومتكفل بها ، أو أنت موال لى وناصرى على من عادانى وأرادنى بسوء وإن نعمك لتغمرنى فى الدنيا ، وسأتمتع بها بفضلك ورحمتك فى الآخرة ، ولا حول لى فى شىء منهما ولا قوة .

(توفنى مسلما) أى اقبضنى إليك مسلما ، وأتم لى وصية آبائى وأجدادى . « وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ: يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .

(وألحقنى بالصالحين) أى وألحقنى بصالح آبائى إبراهيم وإسحاق ومن قبلهم

من أنبيائك ورسالك ، واحشرنى فى زمرتهم ، وهذا الدعاء بمعنى ما جاء فى سورة الفاتحة « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » أى من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

فى ذكر هذا القصص إثبات لنبوة محمد عليه السلام

ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) .

الإيضاح

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) أى إن نبأ يوسف ووالده يعقوب وإخوته وكيف مكن ليوسف فى الأرض وجعل له العاقبة والنصر وآتاه الملك والحكمة فساس ملكا عظيما وأحسن إدارته وتنظيمه وكان خير قدوة للناس فى جميع ما دخل فيه من أطوار الحياة ، بعد أن أرادوا به السوء والهلاك حين عزموا أن يجعلوه فى غيابة الجب — كل ذلك من أخبار الغيب الذى لم تشاهده ولم تره ، ولكنا نوحيه إليك لنثبت به فؤادك ، فتصبر على ما نالك من الأذى من قومك ، ولتعلم أن من قبلك من الرسل لما صبروا على ما نالهم فى سبيل الله ، وأعرضوا عن الجاهلين فازوا بالظفر وأيدوا بالنصر وغلبوا أعداءهم .

ثم أقام الدليل على كونه من الغيب بقوله :

(وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) أى وما كنت حاضرا عندهم ولا مشاهدا حين صحت عزائمهم على أن يلقوا يوسف فى غيابة الجب ، يبغون بذلك هلاكه والخلاص منه ، وهذا كقوله تعالى بعد سياق موسى « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ

الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا » الآية ، وقوله فى هذه القصة « وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا » الآية .

وخلاصة هذا ـ إن الله أطلع رسوله على أنباء ما سبق ليكون فيها عبرة للناس فى دينهم ودنياهم ، ومع هذا ما آمن أكثرهم ، ومن ثم قال :

(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) أى وما أكثر مشركى قومك ولو حرصت على أن يؤمنوا بك ويتبعوا ما جئتهم به من عند ربك ـ بمصدقيك ولا متبعيك .

قال الرازى : إن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا ذكر هذه القصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التعنت ، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية ، وكأنه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى فى قوله « إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

(وما تسألهم عليه من أجر) أى وما تسأل هؤلاء الذين ينكرون نبوتك على ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لربك وطاعته وترك عبادة الأصنام والأوثان من أجر وجزاء منهم ، بل ثوابك وأجر عملك على الله .

والخلاصة ـ إنك لا تسألهم على ذلك مالا ولا منفعة فيقولوا إنما تريد بدعائك إيانا إلى اتباعك أن ننزل لك عن أموالنا إذا سألتنا عن ذلك ، فحالك حال من سبقك من الرسل ، فهم لم يسألوا أقوامهم أجرا على التبليغ والهدى ، والقرآن ملىء بنحو هذا كما فى سورتى هود والشعراء وغيرها .

وإذا كنت لا تسألهم على ذلك أجرا فقد كان حقا عليهم أن يعلموا أنك إنما تدعوهم إليه اتباعا لأمر ربك ونصيحة منك لهم .

(إن هو إلا ذكر للعالمين) أى هذا الذى أرسلك به ربك تذكير وموعظة لإرشاد العالمين كافة لا لهم خاصة ، وبه يهتدون وينجون فى الدنيا والآخرة .

وفى الآية إيماء إلى عموم رسالته صلى الله عليه وسلم .

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧) .

شرح المفردات

وكأين : بمعنى كثير ، والآية هنا: الدليل الذى يرشد إلى وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته ، يمرون عليها : يشاهدونها ، معرضون : أى لا يعتبرون بها ، والغاشية : العقوبة تغشاهم وتعمهم ، و بغتة : فجأة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنّ أكثر الناس لا يؤمنون مهما حرصت على إيمانهم ولا يتأملون فى الدلائل الدالة على نبوتك — ذكر هنا أن هذا ليس ببدع منهم ، فأكثرهم فى غفلة عن التفكر فى آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه فى السموات من كواكب ثوابت وسيارات ، وأفلاك دائرات ، وفى الأرض من حدائق وجنات ، وجبال راسيات ، و بحار زاخرات ، وقفار شاسعات ، وحيوان ونبات :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

الإيضاح

(وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون)أى وكم فى السموات والأرض من آيات دالة على توحيد الله وكمال علمه وقدرته من شمس وقمر ونجوم وجبال و بحار ونباتات وأشجار يمر عليها أكثر الناس وهم غافلون عما فيها

من عبرة ودلالة على توحيد ربها ، وأن الألوهية لا تكون إلا للواحد القهار الذى خلقها وخلق كل شىء فأحسن تدبيره .

وعلى الجملة فما فى السموات والأرض من عجائب وأسرار وإتقان وإبداع — ليدل أتم الدلالة على العلم المحيط والحكمة البالغة والقدرة التامة .

والذين يشتغلون بعلم ما فى السموات والأرض وهم غافلون عن خالقهما ، ذاهلون عن ذكره ، يمتعون عقولهم بلذة العلم ، ولكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ومعرفة الله عزّ وجل ، إذ الفكر وحده وإن كان مفيدا لا تكون فائدته نافعة فى الآخرة إلا بالذكر ، والذكر وإن أفاد فى الدنيا والآخرة لا تكمل فائدته إلا بالفكر ، فطوبى لمن جمع بين الأمرين فكان من الذين أوتوا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ونجوا من عذاب النار فى الآخرة .

(وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) أى وما يقر هؤلاء بأن الله هو الخالق كما قال « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » إلا وهم مشركون به فى عبادتهم سواه من الأوثان والأصنام ومن زعمهم أن له ولدا ، تعالى عما يقولون .

قال ابن عباس هم أهل مكة آمنوا وأشركوا وكانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ، وهذا هو الشرك الأعظم ، إذ يعبد مع الله غيره ، وفى صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا لبيك لا شريك لك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قَدْ ، قَدْ) أى حسب حسب لاتزيدوا على هذا ، وفى الصحيحين عن ابن مسعود «قلت يارسول الله : أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندّا وهو خلقك » .

ومن درس تاريخ الأمم الماضية والحاضرة عرف كيف طرأ الشرك على الأمم ، وسرى فى عباداتهم سريان السّم فى الدسم .

قال ابن القيم فى إغاثة اللهفان : وما زال الشيطان يوحى إلى عبّاد القبور منهم أن الدعاء عندها مستجاب ، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء لها والإقسام على الله بها - مع أن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه - فإذا تقرر ذلك عندهم ، نقلهم منه إلى دعائه وعبادته وسؤاله الشفاعة من دون الله ، واتخاذ قبره وثنا تعلق عليه القناديل والستور ، ويطاف به ويستلم ويقبّل ويحج إليه ويذبح عنده ، فإذا تقرر هذا عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذه عيدا ومنسكا ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم فى دنياهم وأخراهم ، وكل هذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم من تجديد التوحيد وألا يعبد إلا الله اه .

أما التوسل إلى الله بصالحى عباده كقولهم اللهم بجاه فلان عندك أو بحق فلان أو بحرمته أسألك أن تفعل كذا فلم ينقل عن أحد من سلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء ، وما أخرجه الطبرانى من حديث فاطمة بنت أسد من قوله (بحق نبيك والأنبياء من قبلى) فقد طعن فيه رجال الحديث ، على أنه ليس فيه إلا الدعاء بحق النبيين فحسب ، وهو ما فضلهم الله به على غيرهم من النبوة والرسالة وما وعدهم به من التمكين والنصر ، على أن حقوق الرسل وصلاح الصالحين ليست من أعمال السائل التى يستحق عليها الجزاء ولا رابطة تربطها بإجابة سؤاله .

(أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون؟) أى أفأمن هؤلاء الذين يؤمنون بالله ربهم ويشركون به فى عبادته غيره ، أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتغمرهم ، أو تأتيهم الساعة فجأة حيث لا يتوقعون ، وهم مقيمون على شركهم ، وكفرهم بربهم ، فيخلدهم فى نار جهنم .

والآية كقوله «أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ؟ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعذابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ؟ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ؟ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

وقوله « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ ؟ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ؟ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ ؟ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الخَاسِرُونَ » .

وجاء فى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «ولتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لِقْحَتِه (الناقة ذات الدَّر) فلا يطعَمُه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته (لقمته) إلى فيه فلا يطعَمها » والمراد من كل هذا أنها تبغت الناس وهم منهمكون فى أمور معايشهم فلا يشعرون إلا وقد أتتهم .

والحكمة فى إبهام وقتها أن الفائدة لاتتم إلا بذلك ، ليخشى أهل كل زمان إتيانها فى هذا الوقت ، فيحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى فى أعمالهم فيلتزموا الحق ويتحروا الخير ويتقوا الشرور والمعاصى .

قُلْ هذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِى إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ؟ (١٠٩)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن أكثر الناس لايفكرون فيما فى السموات والأرض من آيات، ولا يعتبرون بما فيها من علامات، تدل على أن الله هو الواحد الأحد ، الفرد

الصمد ـ أمر رسوله أن يخبر الناس أن طريقه هى الدعوة إلى توحيد الله و إخلاص العبادة له وحده يدعو بها هو ومن اتبعه على بصيرة و برهان .

الإيضاح

(قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) أى قل أيها الرسول: هذه الدعوة التى أدعو إليها ، والطريقة التى أنا عليها ، من توحيد الله و إخلاص العبادة له دون الأوثان والأصنام هى سنتى ومنهاجى ، وأنا على يقين مما أدعو إليه ولدىّ الحجة والبرهان على ما أقول، وكذلك يدعو إليها أيضا من اتبعنى وآمن بى وصدقنى.

والآية كقوله : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » .

(وسبحان الله) أى وأنزه الله وأعظمه من أن يكون له شريك فى ملكه ، أو أن يكون هناك معبود سواه ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً » .

(وما أنا من المشركين) أى وأنا برىء من أهل الشرك به لست منهم ولا هم منى .

وفى قوله : (على بصيرة) إيماء إلى أن هذا الدين الحنيف لا يطلب التسليم بنظرياته ومعتقداته بحكايتها فحسب ، ولكنه دين حجة و برهان ، فقد ذكر مذاهب المخالفين وكرّ عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان ، وما فيها من الإحكام والإتقان ، على أنظار العقول وطالبها بالإمعان فيها ، لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه .

نقل البغوى عن ابن عباس فى تفسير قوله : « وَمَنِ اتَّبَعَنِى » يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على أحسن طريقة ، وأقصد هداية ، معدن العلم ، وكنز الإيمان ، وجند الرحمن ، وعن ابن مسعود . أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم

كانوا أفضل هذه الأمة ، وأبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على إثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الصراط المستقيم .

وقد كان من شبه منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أن الله لو أراد إرسال رسول لبعث ملكا كما حكى عنهم سبحانه : « لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً » فرد سبحانه عليهم بقوله :

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) فكيف عجبوا منك ولم يعجبوا ممن قبلك من الرسل ، ونظير هذا قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » وقوله : «وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ » وقوله : «قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ » الآية .

وهذه الشبهة ذكرت فى كثير من السور كالأعراف وإبراهيم والنحل والكهف والأنبياء والشعراء ، وقال الحافظ بن كثير : يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لامن النساء ، وهذا قول الجمهور كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة ، فالله لم يوح إلى امرأة من بنات بنى آدم وحى تشريع اهـ .

وفى قوله : (من أهل القرى) أى من أهل الأمصار دون البوادى إيماء إلى أن سائر البلدان تتبعهم إذا آمنوا ، ولأن أهل البادية أهل جفاء ، يرشد إلى ذلك قوله عليه السلام « من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل » .

ثم أتبع ذلك بتأنيبهم وتهديدهم على تكذيبهم بالرسول صلى الله عليه وسلم فقال:

(أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟) أى أفلم يسر هؤلاء المشركون من كفار قريش ممن يكذبونك ويجحدون نبوتك وينكرون ماجئتهم به من توحيد الله وإخلاص العبادة له ، فينظروا فيما وطئوا من البلاد من أوقعنا بهم من الأمم قبلهم كقوم لوط وصالح وسائر من عذبهم الله من الأمم ، وما

أحللنا بهم من بأسنا بتكذيبهم رسلنا ، وجحودهم بآياتنا ، و يعتبروا بما حل بهم .

ثم رغب فى العمل للآخرة فقال :

(ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) أى إن الدار الآخرة للذين آمنوا بالله ورسله واتقوا الشرك به وارتكاب الآثام والمعاصى ـ خير من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث المكذبين بالرسل والذين لاحظ لهم من هذه الحياة إلا التمتع بلذاتها .

فإن نعيمها البدنى أكمل من نعيم الدنيا ، لدوامه وثباته وخلوه عن المنغصات والآلام ، فما بالك بنعيمها الروحى من لقاء الله ورضوانه وكمال معرفته .

(أفلا تعقلون؟) هذا الفرق أيها المكذبون بالآخرة ، أما إنكم لوعقلتم ذلك لآمنتم .

ثم ذكر سبحانه تثبيتا لفؤاده عليه السلام أن العاقبة لرسله ، وأن نصره تعالى ينزل عليهم حين ضيق الحال وانتظار الفرج كما قال : « كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » وقال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » وأن نصره يأتيهم إذا تمادى المبطلون فى تكذيبهم فقال :

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) .

شرح المفردات

الظن هنا : إما بمعنى اليقين و إما بمعنى الحسبان والتقدير ، والبأس : العقاب ، والألباب : العقول واحدها لب، وسمى بذلك لكونه خالص مافى الإنسان من قواه، والعبرة : الحال التى يتوصل بها من قياس ماليس بمشاهد بما هو بمشاهد .

الإيضاح

(حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا) أى وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى فدعوا من أرسلوا إليهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له فكذبوا بما جاءوهم به ، وردوا ما أتوا به من عند ربهم ، حتى إذا يئس الرسل من إيمانهم لانهما كهم فى الكفر وتماديهم فى الطغيان من غير وازع ، وظنت الأمم أن الرسل الذين أرسلوا إليهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهم عن الله من وعده لهم النصر عليهم ــ جاءهم نصرنا .

وهذه سنة الله فى الأمم ، يرسل إليهم الرسل بالبينات ، ويؤيدهم بالمعجزات ، حتى إذا أعرضوا عن الهداية ، وعاندوا رسل ربهم، وامتدت مدة كيدهم وعدوانهم، واشتد البلاء على الرسل واستشعروا بالقنوط من تمادى التكذيب وتراخى النصر ــ جاءهم نصر الله فجأة ، وأخذ المكذبين العذاب بغتة ، كالطوفان الذى أغرق قوم نوح ، والريح التى أهلكت عادا قوم هود ، والصيحة التى أخذت ثمود ، والخسف الذى نزل بقرى قوم لوط وهم فيها كما قال : « أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

وفى هذا تذكير لكفار قريش بأن سنته تعالى فى عباده واحدة لاظلم فيها ولا محاباة ، وبأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم حل بهم من العذاب ماحل بأمثالهم من أقوام الرسل كما قال فى سورة القمر : « أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ؟» وقد نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر وما بعدها من الغزوات ، وأهلك الجاحدين المعاندين من قومه .

روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت لابن أختها عروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى : (حتى إذا استيأس الرسل) الآية ، هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر ، حتى إذا

استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم - جاءهم نصر الله عند ذلك .

وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ وظنوا أنهم قد كذبوا (مخففة) أخرجه ابن مردويه من طريق عكرمة ، ونحوه عن ابن عباس قال : يئس الرسل أن يستجيبوا لهم وظن قومهم أن الرسل كذبوهم بما جاءوهم به جاءهم نصرنا ، ونحوه عن ابن مسعود قال حفظت عن رسول الله في سورة يوسف أنهم قد كذبوا مخففة اه .

(فنجّى من نشاء) أي فنجى الرسل ومن آمن بهم من أقوامهم ، لأنهم على حسب ماوضع الله من تأثير الأعمال في طهارة النفوس وزكائها - هم الذين يستحقون النجاة دون غيرهم كما قال : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

(ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين) أي ولا يمنع عقابنا وبطشنا عن القوم الذين أجرموا فكفروا بالله وكذبوا رسله ، وما أتوهم به من عند ربهم .

وقد جرت سنة الله أن يبلغ الرسل أقوامهم ويقيموا عليهم الحجة وينذروهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب ، فيؤمن المهتدون ، ويصر المعاندون ، فينجي الله الرسل ومن آمن من أقوامهم ويهلك المكذبين .

ولا يخفى مافي الآية من التهديد والوعيد لكفار قريش ومن على شاكلتهم من المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم .

(لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) قص الخبر : حدّث به على أصح الوجوه وأصدقها ، من قولهم قص الأثر واقتصه إذا تتبعه وأحاط به خُبْرا ، أي لقد كان في قصص يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته عبرة لذوي العقول الراجحة والأفكار الثاقبة ، لأنهم هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها ، أما الأغرار الغافلون فلا يستعملون عقولهم في النظر والاستدلالات ، ومن ثم لا يفيدهم النصح .

وجهة الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إنجاء يوسف بعد إلقائه في غيابة الجب وإعلاء أمره بعد وضعه في السجن ، وتمليكه مصر بعد أن بيع بالثمن البخس ،

والتمكين له فى الأرض من بعد الإسار والحبس الطويل ، وإعزازه على من قصده بالسوء من إخوته ، وجمع شمله بأبويه وبهم بعد المدة الطويلة المدى ، والمجىء بهم من الشقة البعيدة النائية – إن الذى قدر على ذلك كله لقادر على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، فيخرجه من بين أظهركم ، ثم يظهره عليكم ، ويمكن له فى البلاد ، ويؤيده بالجند والرجال ، والأتباع والأعوان ، وإن مرت به الشدائد ، وأتت دونه الأيام والحوادث .

(ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه) أى ما كان هذا القصص حديثا يختلق ويفترى لأنه نوع أعجز حملة الأحاديث ورواة الأخبار – ممن لم يطالع الكتب ولم يخالط العلماء ، فهو دليل ظاهر ، وبرهان قاهر ، على أنه جاء بطريق الوحى والتنزيل ، ومن ثم قال ولكن تصديق الذى بين يديه أى من الكتب السماوية التى أنزلها الله قبله على أنبيائه كالتوراة والإنجيل والزبور ، أى تصديق ما عندهم من الحق فيها ، لا كل الذى عندهم ، فهو ليس بمصدق لما عندهم من خرافات فاسدة ، وأوهام باطلة ، لأنه جاء لمحوها وإزالتها ، لا لإثباتها وتصديقها .

(وتفصيل كل شىء) من أمر الله ونهيه ، ووعده ووعيده ، وبيان ما يجب له تعالى من صفات الكمال وتنزهه عن صفات النقص ، وفيه قصص الأنبياء مع أقوامهم ، لما فيها من عبر وعظات وسائر ما بالعباد إليه حاجة .

وعلى الجملة ففى القرآن تفصيل كل شىء يحتاج إليه فى أمر الدين ، وقد أسهب فى موضع الإسهاب وأوجز حيث يكفى الإيجاز ، ففصل الحق فى العقائد بالحجج والدلائل ، وفى الفضائل والآداب وأصول الشريعة وأمهات الأحكام بما به تصلح أمور البشر وشئون الاجتماع .

(وهدى) أى وهو هدى لمن تدبره ، وأنعم فى النظر فيه وتلاه حق تلاوته ، فهو مرشد إلى الحق وهاد إلى سبيل الرشاد وعمل الخير والصلاح ، فى الدين والدنيا .

(ورحمة لقوم يؤمنون) أى وهو رحمة عامة للمؤمنين الذين تنفذ فيهم شرائعه فى دينهم ودنياهم .

والخاضعون لهـا من غير المؤمنين يكونون فى ظلها آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، أحرارا فى عقائدهم وعباداتهم ، مساوين للمؤمنين فى حقوقهم ومعاملاتهم، يعيشون فى بيئة خالية من الفواحش والمنكرات التى تفسد الأخلاق وتعبث بالفضائل.

نسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم فى الدنيا والآخرة ، وأن يحشرنا فى زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين يوم تسودّ وجوه وتبيضّ وجوه وأن يجعل خواتيمنا خير الخواتيم فى الدنيا والآخرة كما جعل خاتمة يوسف مع أبويه و إخوته كذلك .

إجمال ما جاء فى سورة يوسف

(١) قصص يوسف رؤياه على أبيه يعقوب .

(٢) نهى يعقوب لولده عن قَصِّهِ قَصَصَهُ على إخوته .

(٣) تدبيرهم المكيدة ليوسف و إلقائه فى غيابة الجب .

(٤) ادعاؤهم أن الذئب قد أكله .

(٥) عثور قافلة ذاهبة إلى مصر عليه والتقاطها له .

(٦) بيعها إياه فى مصر بثمن بخس لعزيز مصر .

(٧) وصية العزيز لامرأته بإكرام مثواه .

(٨) مراودة المرأة له عن نفسها و إعداد الوسائل لذلك .

(٩) تمنّعه من ذلك إكراما لسيده الذى أكرم مثواه .

(١٠) قدُّها لقميصه وادعاؤها عليه أنه هو الذى أراد بها الفاحشة .

(١١) شهادة شاهد من أهلها بما يجلى الحقيقة .

(١٢) افتضاح أمرها فى المدينة لدى النسوة .

(١٣) تدبيرها المكيدة لأولئك النسوة و إحكام أمرها .

(١٤) إدخاله السجن اتباعا لمشيئتها .

(١٥) تعبيره رؤيا فتيين دخلا معه السجن .
(١٦) رؤيا الملك وطلبه تعبيرها .
(١٧) إرشاد أحد الفتيين للملك عن يوسف وأنه نعم المعبّر لها .
(١٨) طلب الملك إحضاره من السجن واستخلاصه لنفسه .
(١٩) توليته رئيسا للحكومة ومهيمنا على ماليتها .
(٢٠) مجىء إخوة يوسف إليه وطلبه منهم أن يحضروا أخاهم لأبيهم .
(٢١) إرجاع البضاعة التى جاءوا بها .
(٢٢) إحضارهم أخاه إليه بعد إعطائهم الموثق لأبيهم .
(٢٣) طلب أبيهم أن يدخلوا المدينة من أبواب متعددة .
(٢٤) إخبار يوسف لأخيه عن ذات نفسه .
(٢٥) أذان المؤذن أن العير قد سرقوا .
(٢٦) قول الإخوة إن أخاه قد سرق من قبل بعد حجزه عنده .
(٢٧) طلب الإخوة من يوسف أن يأخذ أحدهم مكانه .
(٢٨) وجود غشاوة على عينى يعقوب من الحزن .
(٢٩) تعريف يوسف بنفسه لإخوته .
(٣٠) حين جاء البشير بقميص يوسف ارتد يعقوب بصيرا .
(٣١) طلب الإخوة من أبيهم أن يستغفر لهم .
(٣٢) رفع يوسف أبويه على العرش .
(٣٣) قول يوسف لأبيه هذا تأويل رؤياى من قبل .
(٣٤) دعاؤه بحسن الخاتمة .
(٣٥) فى هذا القصص إثبات لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .
(٣٦) تحذير المشركين من نزول العذاب بهم كما حدث لمن قبلهم .
(٣٧) لم يرسل الله إلا رجالا وما أرسل ملائكة .
(٣٨) نصر الرسل بعد الاستيئاس .
(٣٩) فى قصص الرسل عبرة لأولى الألباب .

سورة الرعـــد

هى مدنية وآيها ثلاث وأربعون ، نزلت بعد سورة محمد ، ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه سبحانه أجمل فى السورة السابقة الآيات السماوية والأرضية فى قوله « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » ثم فصلها هنا أتم تفصيل فى مواضع منها .

(٢) إنه أشار فى سورة يوسف إلى أدلة التوحيد بقوله « أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ؟ » ثم فصل الأدلة هنا بإسهاب لم يذكر فى سالفتها .

(٣) إنه ذكر فى كلتا السورتين أخبار الماضين مع رسلهم ، وأنهم لاقوا منهم ما لاقوا وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وكتب الخزى على الكافرين والنصر لرسله والمؤمنين ، وفى ذلك تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وتثبيت لقلبه .

(٤) جاء فى آخر السورة السابقة وصف القرآن بقوله : « مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » وفى أول هذه وهو قوله « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرٰ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) .

الإيضاح

(الٓمٓر) قلنا فيما سلف إن هذه الحروف فى أوائل السور حروف تنبيه كألا ونحوها، وتقرأ بأسمائها ساكنة فيقال «ألفْ لامْ، ميمْ، رَا»؛ كما قلنا إن كل سورة بدئت بهذه الحروف ففيها انتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه .

(تلك آيات الكتاب) أى آيات هذه السورة آيات القرآن البالغ حد الكمال المستغنى عن الوصف بين الكتب السماوية الجدير بأن يختص باسم «الكتاب» .

(والذى أنزل إليك من ربك الحق) أى وكل القرآن الذى أنزله إليك ربك حق لاشك فيه، وهذا كالإجمال بعد التفصيل لما تقدم من وصف السورة بالكمال فكأنه سبحانه بعد أن أثبت لهذه السورة الرفعة والكمال عمم هذا الحكم فأثبته للقرآن جميعه فلا تختص به سورة دون أخرى .

وهذا الأسلوب جار على سنن العرب فى تخاطبهم فقد قالت فاطمة الأنمارية وقد سئلت عن بنيها، أى بنيك أفضل؟ (ربيعة، بل عمارة، بل قيس، بل أنس، ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها) فبعد أن أثبتت الفضل لكل منهم على سبيل التعيين، أجملت القول وأثبتت لهم الفضل جميعا .

(ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أى ولكن أكثر الناس لا يصدقون بما أنزل عليك من ربك، ولا يقرون بهذا القرآن وما فيه من بديع الأمثال والحكم والأحكام التى تناسب مختلف العصور والأزمان، والتى لو سار الناس على سننها لسعدوا فى الدنيا والآخرة؛ وقد سلك المسلمون سبيلها فى عصورهم الأولى فكانوا خير أمة أخرجت للناس، وامتلكوا أكثر المعمور فى ذلك الحين وثلوا عروش كسرى والروم ودانت لهم الرقاب، وساسوا الملك سياسة شهد لهم أعداؤهم

بأنها كانت سياسة عدل ورفق ، وأخذ على يد الظالم لإنصاف المظلوم ، فلله دين رفع من قدر أهله حتى أوصلهم إلى السماكين ؛ ولكن خلف من بعدهم خلف أضاعوا معالم دينهم وألقوه وراءهم ظهريا فحاق بهم ما كانوا يكسبون ، وصاروا أذلة بعد أن كانوا أعزة ، ومستعبدين بعد أن كانوا سادة ، تابعين بعد أن كانوا متبوعين « إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ » والآية بمعنى قوله « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » .

أَللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ ، إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) .

شرح المفردات

العمد: السوارى واحدها عمود كأدم وأديم، والتسخير: التذليل والطاعة، والتدبير: التصريف للأمور على وجه الحكمة ، والتفصيل : التبيين ، والآيات: هى الأدلة التى تقدم ذكرها من الشمس والقمر ، واليقين : العلم الثابت الذى لاشك فيه ، والمد : البسط ، والرواسى: الثوابت المستقرة التى لاتتحرك ولاتنتقل واحدها راسية ، والأنهار

واحدها نهر: وهو المجرى الواسع من الماء، زوجين اثنين: أى ذكر وأنثى، والعرب تسمى الاثنين زوجين والواحد من الذكور زوجا لأنثاه، والأنثى زوجا وزوجة لذكرها، يغشى يغطى، قطع: أى بقاع مختلفة، متجاورات: أى متقاربات، جنات أى بساتين، صنوان: هى النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها واحدها صنو وفى الحديث «عم الرجل صنو أبيه» والأكل (بضمتين و بتسكين الثانى): ما يؤكل فالمراد به هذا التمر والحب.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية السالفة أن أكثر الناس لا يؤمنون، أعقبه بذكر البراهين على التوحيد والمعاد فاستدل بأحوال السموات وأحوال الشمس والقمر وأحوال الأرض جبالها وأنهارها وأزهارها ونخيلها وأعنابها واختلاف ثمراتها وتنوع غلاتها على وجود الإله القادر القاهر الذى بيده الخلق والأمر، و بيده الضر والنفع، و بيده الإحياء والإماتة، وهو على كل شىء قدير.

الإيضاح

ذكر سبحانه أدلة على وجوده ووحدانيته وقدرته، بعضها سماوى و بعضها أرضى، وذكر من الأولى جملة أمور:

(١) (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها) أى إنه تعالى خلق السموات مرفوعات عن الأرض بغير عمد بل بأمره وتسخيره، على أبعاد لا يدرك مداها، وأنتم ترونها كذلك بلا عمد من تحتها تسندها، ولا علاقة من فوقها تمسكها، وقد تقدم هذا بإيضاح فى سورة البقرة.

(٢) (ثم استوى على العرش) أى ثم استوى على عرشه الذى جعله مركز هذا التدبير العظيم استواء يليق بعظمته وجلاله يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من

النظام وإرادته وحكمته من إحكام وإتقان ، وقد سبق تفصيل هذا فى سورتى الأعراف ويونس .

(٣) (وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) أى وذلل الشمس والقمر وجعلهما طائعين لما أريد منهما لمنافع خلقه ، فكل منهما يسير فى منازله لوقت معين ؛ فالشمس تقطع فلكها فى سنة ، والقمر فى شهر لايختلف جرى كل منهما عن النظام الذى قدر له ، وإليه الإشارة بقوله « وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » وقوله «وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ» وإيضاح هذا ذكر فى سورتى يونس وهود ، وبعد أن ذكر هذه الدلائل قال :

(يدبر الأمر) أى إنه تعالى يتصرف فى ملكه على أتم الحالات وأكمل الوجوه فهو يميت ويحيي ويوجد ويعدم ويغنى ويفقر وينزل الوحى على من يشاء من عباده، وفى ذلك برهان ساطع على القدرة والرحمة ، فإن اختصاص كل شىء بوضع خاص وصفة معينة لا يكون إلا من مدبر اقتضت حكمته أن يكون كذلك ، فتدبيره لعالم الأجسام كتدبيره لعالم الأرواح وتدبيره للكبير كتدبيره للصغير لايشغله شأن عن شأن ، ولا يمنعه تدبير شىء عن تدبير آخر كما هو شأن المخلوقات فى هذه الدنيا ، وكذلك هو دليل أيضا على أنه تعالى متعال فى ذاته وصفاته وعلمه وقدرته لايشبه شيئا من مخلوقاته .

(يفصل الآيات) أى يلبس الموجودات ثوب الوجود بنظام محكم دقيق ، ويوجد بينها ارتباطات تجعلها كأنها سلسلة متصلة الحلقات لا انفصام لبعضها عن بعض ، فالمجموعة الشمسية من الشمس والقمر والكواكب مرتبطة فى حركاتها بنظام خاص بوساطة الجاذبية لاتحيد عن سننه ولاتجد معدلا عن السير فيه على حسب النهج الذى قدر لها، ولا تزال كذلك حتى ينتهى العالم، فيحدث حينئذ تغيير لأوضاعها ، واختلال لحركاتها : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ » .

وهكذا الموجودات الأرضية لها أسباب تعقبها مسببات بإذن الواحد الأحد ، فالزارع يحرث أرضه ويلقى فيها الحب ثم يسقيها ويضع فيها السَّمادَ ويوالى سقيها حتى تؤتى أكلها ، فإذا فقدت حلقة من تلك السلسلة باء صاحب الزرع بالخسران فلم يحصل على شيء أو حصل على القليل التافه الذى لا يعدل التعب والنصب الذى فعله .

ثم أبان سبحانه أن هذا التدبير للأمور والتفصيل للآيات الدالين على القدرة الكاملة والحكمة الشاملة ، جاءا لحكمة اقتضتهما وهى الإيقان بالبعث لفصل القضاء ومجازاة كل عامل بما عمل : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » فإما نعيم مقيم وإما عذاب أليم ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(لعلكم بلقاء ربكم توقنون) أى رجاء أن تتحققوا أن من قدر على رفع السموات بغير عمد ودبر الأمر بإحكام ونظام ـ قادر على البعث والنشور وإحياء الموتى من القبور لفصل القضاء ثم ثواب كل عامل على ما عمل ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ؛ فإما سعادة لاشقاء بعدها ، وإما نكال وعذاب تتبدل من هوله الجلود « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا » .

وخلاصة هذه العبرة — إنه تعالى كما قدر على إبقاء الأجرام الفلكية العظيمة من الشمس والقمر وسائر الكواكب فى الجو بلا عمد ودبر الأمور بغاية الإحكام والدقة ولم يشغله شأن عن شأن ـ ليس بالبعيد عليه أن يرد الأرواح إلى الأجساد ويُعيد العالم إلى حياة أخرى حياة استقرار وبقاء يفصل فيها القضاء ، وإذا أيقنتم بذلك ولّيتم معرضين عن عبادة الأصنام والأوثان ، وأخلصتم العبادة للواحد الديان ، وائتمرتم بوعده ووعيده وصدقتم برسله وبادرتم إلى اتباع أوامره وتركتم مانهى عنه ، ففزتم بسعادة الدارين .

وبعد أن ذكر سبحانه الدلائل السماوية على وحدانيته وكمال قدرته أردفها بالأدلة الأرضية فقال :

(١) (وهو الذى مد الأرض) أى جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض ، لتثبت عليها الأقدام، و يتقلب عليها الحيوان، وينتفع الناس بخيراتها زرعها وضرعها ، و بما فى باطنها من معادن جامدة وسائلة ، و يسيرون فى أكنافها يبتغون رزق ربهم منها .

ولا شك أن الأرض لعظم سطحها هى فى رأى العين كذلك ، وهذا لايمنع كرويتها التى قد قامت عليها الأدلة لدى علماء الفلك ولم يبق لديهم فيها ريب .

(٢) (وجعل فيها رواسى) أى وأرساها بجبال راسيات شامخات لاتنتقل ولا تتحرك حتى لاتميد وتضطرب .

(٣) (وأنهارا) أى وجعل فيها أنهارا جارية لمنافع الإنسان والحيوان ، فيسقى الإنسان ماجعل الله فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال ويجعلها له طعاما وفاكهة ، ويكون منها مادة حياته فى طعامه وشرابه وغذائه .

(٤) (ومن كل الثمرات ، جعل فيها زوجين اثنين) أى وجعل فيها من كل أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكرا وأنثى حين تكوّنها ، فقد أثبت العلم حديثا أن كل شجر وزرع لايتولد ثمره وحبه إلا من اثنين ذكر وأنثى ، وعضو التذكير قد يكون مع عضو التأنيث فى شجرة واحدة كأغلب الأشجار ، وقد يكون عضو التذكير فى شجرة وعضو التأنيث فى شجرة أخرى كالنخل ، وما كان العضوان فيه فى شجرة واحدة إما أن يكونا معا فى زهرة واحدة كالقطن ، وإما أن يكون كل منهما فى زهرة كالقرع مثلا .

(٥) (يغشى الليل النهار) أى يُلبس النهار ظلمة الليل فيصير الجو مظلما بعد أن كان مضيئا فكأنه وضع عليه لباسا من الظلمة ، وكذلك يلبس الليل ضياء النهار فيصير الجو مضيئا ، وكل هذا لتتم المنافع للناس بالسكون والاستقرار أو بالبحث على المعايش والأرزاق كما قال : « أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ

وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » وقال : « وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ » .

وبعد أن ذكر هذه الأدلة التى تشاهد رأى العين فى كل صباح ومساء وفى كل حين ووقت ، ذكر أن هذه الأدلة لايلتفت إليها ولايعتبر بها إلا من له فكر يتدبر به وعقل يهتدى به إلى وجه الصواب وينتقل من النظر فى الأسباب إلى مسبباتها فقال :

(إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى إن فيما ذكر من عجائب خلق الله وعظيم قدرته التى خلق بها هذه الأشياء العظيمة ـ لدلائل وحججا لمن يتفكر فيها ويعتبر فيعلم أن الخالق لذلك هو القاهر فوق العباد وهو ذو الإرادة المطلقة والقدرة الشاملة ، فلا يعجزه إحياء من هلك من خلقه ولا إعادة من فنى منهم ولا ابتداع ماشاء ابتداعه ، ومن ثم لاتجوز العبادة إلا له ولا التذلل والخضوع إلا لسلطانه ، ولا ينبغى أن تكون لصنم أو وثن أو حجر أو شجر أو ملك أو نبى أو غير أولئك ممن سلب النفع والضر ، بل لايستطيع صرف الأذى عن نفسه : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » .

وقد روى « تفكروا فى آلاء الله ولا تتفكروا فى الله » .

(٦) (وفى الأرض قطع متجاورات) أى وفى الأرض بقاع متجاورات متدانيات يقرب بعضها من بعض وتختلف بالتفاضل مع تجاورها ، فمن سبخة لاتنبت شيئا إلى أرض جيدة التربة تجاورها وتنبت أفضل الثمرات ومختلف النبات ، ومن صالحة للزرع دون الشجر، إلى أخرى مجاورة لها تصلح للشجر دون الزرع، إلى متدانية لهما تصلح لجميع ذلك ، ومنها الرخوة التى لاتكاد تتماسك وهى تجاور الصلبة التى لاتفتتها المعاول وأدوات التدمير من المفرقعات (الديناميت والقنابل) وكلها من صنع الله وعظيم تدبيره فى خلقه .

(وجنات من أعناب) أى وفيها بساتين من أشجار الكرم .

(وزرع) أى وفيها زرع من كل نوع وصنف من الحبوب المختلفة التى تكون غذاء للإنسان والحيوان .

(ونخيل صنوان وغير صنوان) أى وفيها نخيل صنوان يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها ، وغير صنوان أى متفرقات مختلفة الأصول .

(يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) أى يسقى كل ما ذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل بماء واحد لا اختلاف فى طبعه ، ومع وجود أسباب التشابه نفضل بمحض القدرة بعضا منها على بعض فى الثمرات شكلا وقدرا ورائحة وطعما وحلاوة وحموضة .

ثم بين أن مثل هـذا لايفكر فيه إلا من أوتى العقل الذى يفكر فى المقدمات والنتائج والأسباب والمسببات فقال :

(إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى إن فيما فصل من الأحوال السالفة لآيات باهرة لقوم يعملون على قضية العقل ، فمن ير خروج الثمار المختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح فى تلك البقاع المتلاصقة ، مع أنها تسقى بماء واحد وتتشابه وسائل نموها ــ يجزم حتما بأن لذلك صانعا حكيما قادرا مدبرا لا يعجزه شىء ، وكذلك يعتقد بأن من قدر على إنشاء ذلك ، فهو قادر على إعادة ما بدأه أول مرة ، بل هو أهون منه لدى النظر والاعتبار .

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ،

وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) .

شرح المفردات

العجب : تغير النفس حين رؤية مايستبعد فى مجرى العادة ، والأغلال : واحدها غل ، وهو طوق من الحديد طرفاه فى اليدين ويحيط بالعنق ، والمثلات (بفتح فضم) واحدها مثلة (بفتح فضم) كسمُرة: وهى العقوبة التى تترك فى المعاقب أثرا قبيحا كصلم أذن أو جدع أنف أو سمل عين ، والغفر : الستر بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، والمراد بالآية هنا الآيات الحسية كقلب عصا موسى حية وناقة صالح ، والإنذار : التخويف ، والهادى : القائد الذى يقود الناس إلى الخير كالأنبياء والحكماء والمجتهدين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنكارهم لوحدانيته تعالى مع وضوح الأدلة على ذلك من خلق السموات بلا عمد وتسخير الشمس والقمر يجريان إلى أجل مسمى ، ومن مد الأرض وإلقاء الجبال الرواسى فيها إلى آخر ما ذكر من الآيات الدالة على عظيم قدرته وبديع صنعه لمن يتأمل ويتفكر فى ذلك الملكوت العظيم ــ ذكر هنا إنكارهم للبعث والنشور على وضوح طريقه وسطوع دليله قياسا على مايرون ويشاهدون ، فإن من قدر على خلق السموات والأرض وسائر العوالم على هذا النحو الذى يحار الإنسان فى الوصول إلى معرفة كنهه لايعجز عن إعادته فى خلق جديد كما قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِىَ الْمَوْتَى ؟ » .

الإيضاح

(وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ؟) أى وإن تعجب من عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام والأوثان بعد أن قامت الأدلة على التوحيد ، فأعجب منه تكذيبهم بالبعث واستبعادهم إياه بقولهم :

(أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ؟) أى أئذا فنينا و بلينا نعاد بعد العدم ، مع أنهم لا ينكرون قدرته تعالى على إيجادهم بداءة ذى بدء وتصويرهم فى الأرحام وتدبير شئونهم حالا بعد حال .

وقد تكرر هذا الاستفهام فى أحد عشر موضعا فى تسع سور من القرآن: فى الرعد، والإسراء ، والمؤمنون ، والنحل ، والعنكبوت ، والسجدة ، والصافات ، والواقعة ، والنازعات ؛ وكلها تتضمن كمال الإنكار وعظيم الاستبعاد .

ثم وصف أولئك المنكرين للبعث فقال :

(أولئك الذين كفروا بربهم) أى أولئك الذين جحدوا قدرة ربهم وكذبوا رسوله على ما عاينوا من آياته الكبرى التى ترشدهم إلى الإيمان وتهديهم سبيل الرشاد لو كانوا يبصرون — هم الذين تمادوا فى عنادهم وكفرهم ، فإن إنكار قدرته تعالى إنكار له لأن الإله لا يكون عاجزا .

(وأولئك الأغلال فى أعناقهم) أى وأولئك مقيدون بسلاسل وأغلال من الضلال تصدهم عن النظر فى الحق واتباع طريق الهدى والبعد عن الهوى كما قال :

كيف الرشاد وقد خُلِّفت فى نفر لهم عن الرشد أغلال وأقياد

وقد يكون المعنى — إنهم يوم القيامة عند العرض للحساب توضع الأغلال فى أعناقهم كما يقاد الأسير الذليل بالغل ، ويؤيده قوله تعالى : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » .

(وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى وأولئك هم الماكثون فى النار دار

الذل والهوان لايتحولون عنها ولا يبرحونها كفاء ما سولت لهم أنفسهم من سىء الأعمال وما اجترحوا من الموبقات والشرور والآثام : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

وبعد أن ذكر تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم فى إنكار عذاب يوم القيامة ذكر جحودهم لعذاب الدنيا الذى أوعدهم به ، وكانوا كلما هددهم بالعذاب قالوا له جئنا بهذا العذاب وطلبوا منه إنزاله ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(ويستعجلونك بالسيئة) أى ويستعجلونك بالعقوبة التى هددوا بها إذا هم أصروا على الكفر استهزاء وتكذيبا كما حكى الله عنهم فى قوله « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ » وفى قوله « وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ » وفى قوله « سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ » .

(قبل الحسنة) أى قبل الثواب والسلامة من العقوبة ، وكان صلى الله عليه وسلم يعدهم على الإيمان بالثواب فى الآخرة وحصول النصر والظفر فى الدنيا .

(وقد خلت من قبلهم المثلات) أى ويستعجلونك بذلك مستهزئين بإنذارك منكرين وقوع ما تنذرهم به ، والحال أنه قد مضت العقوبات الفاضحة النازلة على أمثالهم من المكذبين المستهزئين ، فمن أمة مسخت قردة ، وأخرى أهلكت بالرجفة ، وثالثة أهلكت بالخسف إلى نحو أولئك .

(وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أى وإن ربك لذو عفو وصفح عن ذنوب من تاب من عباده فتارك فضيحته بها فى يوم القيامة ، ولولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة حين اكتسابها كما قال « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » .

(وإن ربك لشديد العقاب) لمن يجترح السيئات وهو متماد فى غوايته سادر

فى آثامه ، وقد يعجل له قسطا منه فى الدنيا ويكون جزاء له على ما سولت له نفسه كما يشاهد لدى المدمنين على الخمور من اعتلال وضعف ومرض مزمن وفقر مدقع وذل وهوان بين الناس ، وفى المقامرين من خراب عاجل وإفلاس فى المال والذل بعد العز ، وربما اقتضت حكمته أن يؤجل له ذلك إلى يوم مشهود يوم يقوم الناس لرب العالمين فيستوفى قطّه هناك نارا تكوى بها الجباه والجنوب ، وتبدل الجلود غير الجلود ، وقد قرن المغفرة بالعقاب فى مواضع كثيرة من الكتاب الكريم ليعتدل الرجاء والخوف كقوله « إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » وقوله « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ » إلى أمثال ذلك من الآيات التى تجمع الخوف والرجاء .

روى ابن أبى حاتم عن سعيد بن المُسيِّب قال: لما نزلت هذه الآية (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ) الخ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحدا العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل واحد » .

وبعد أن ذكر طعنهم فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله بالحشر والمعاد ، ثم طعنهم فيه لأنه أنذرهم بحلول عذاب الاستئصال ذكر أنهم طعنوا فيه لأنه لم يأت لهم بمعجزة مبينة كما فعل الرسل من قبله فقال :

(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) أى ويقول الذين كفروا تعنتا وجحودا : هلا يأتينا بآية من ربه كعصا موسى وناقة صالح ، فيجعل لنا الصفا ذهبا ويزيح عنا الجبال ويجعل مكانها مروجا وأنهارا ، وقد طلبوا ذلك ظنا منهم أن القرآن كتاب كسائر الكتب لايدخل فى باب المعجزات التى أتى بها الرسل السالفون .

وقد رد الله عليهم الشبهة بقوله فى آية أخرى « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الاوَّلُونَ » أى إن سنتنا أن الآيات إن لم يؤمن بها من طلبوها أهلكناهم بذنوبهم ، ولم نشأ أن يحل بكم عذاب الاستئصال .

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم راغبا في إجابة مقترحاتهم حبا في إيمانهم بين له وظيفته التي أرسل لأجلها فقال :

(إنما أنت منذر) أي إن مهمتك التي بعثت لها هي الإنذار من سوء مغبة ما نهى الله عنه كدأب من قبلك من الرسل ، وليس عليك الإتيان بالآيات التي يقترحونها ابتغاء هدايتهم ، فأمر ذلك إلى خالقهم وهاديهم « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » ، « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

(ولكل قوم هاد) أي ولكل أمة قائد يدعوهم إلى سبل الخير ، فطره الله على سلوك طريقه بما أودع فيه من الاستعداد له بسائر وسائله ، وقد شاء أن يبعث هؤلاء الهداة في كل زمان كي لا يترك الناس سدى ، وأولئك هم الأنبياء الذين يرسلهم لهداية عباده، فإن لم يكونوا فالحكماء والمجتهدون الذين يسيرون على سننهم ويقتدون بما خلفوا من الشرائع وفضائل الأخلاق وحميد الشمائل ، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١) .

شرح المفردات

الغيض : النقصان يقال غاض الماء وغضته كما قال « وَغِيضَ الْمَاءُ » بمقدار ، أى بأجل لا يتجاوزه ولا ينقص عنه ، والغائب : ما غاب عن الحس ، والشاهد : الحاضر المشاهد ، الكبير: العظيم الشأن ، والمتعالى : المستعلى على كل شيء ، وأسر الشيء : أخفاه فى نفسه ، والمستخفى : المبالغ فى الاختفاء ، والسارب : الظاهر ، من قولهم سرب: إذا ذهب فى سَرْبه (طريقه) معقبات، أى ملائكة تعتقب فى حفظه وكلاءته واحدها معقبة ، من عقبه : أى جاء عقبه ، من بين يديه، أى قدامه ، ومن خلفه ، أى من ورائه ، من أمر الله ، أى بأمره و إعانته ، وال ، أى ناصر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه إنكار المشركين للبعث واستبعادهم له كما حكى عنهم بقوله « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ » ، إذ رأوا أن أجزاء الحيوان حين تفتتها وتفرقها يختلط بعضها ببعض ، وقد تتناثر فى بقاع شتى ونواح عدة وربما أكل بعضَ الجسم سبع و بعضه الآخر حدأة أو نسر ، وحيناً يأكل السمك قطعة منه وأخرى يجرى بها الماء وتدفن فى بلد آخر، أزال هذا الاستبعاد بأن الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، والذى يعلم الأجنة فى بطون أمهاتها ، و يعلم ما هو مشاهد لنا أو غائب عنا يعلم تلك الأجزاء المتناثرة ومواضعها مهما نأى بعضها عن بعض و يضم متفرقاتها و يعيدها سيرتها الأولى .

الإيضاح

(الله يعلم ما تحمل كل أنثى) من ذكر أو أنثى ، واحد أو متعدد ، طويل العمر أو قصيره كما قال « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ » ، وقال « وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ » .

(وما تغيض الأرحام وما تزداد) أى وما تنقصه الأرحام وما تزداده من عدد فى الولد فقد يكون واحدا وقد يكون اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، ومن جسده فقد يكون تامّا وقد يكون ناقص الخلق وهو المخْدَجُ ، ومن مدة الحمل فقد تكون أقل من تسعة أشهر وقد تكون تسعة إلى عشرة أشهر تقريبا ، فقد دل الإحصاء والبحث الذى عمل فى مستشفيات لندن على أن الجنين لا يستقر فى البطن وهو حى أكثر من ٣٠٥ يوم ، وفى مستشفيات برلين على أنه لا يستقر أكثر من ٣٠٨ ومن ثم جرت المحاكم الشرعية الآن على أن عدة المطلقة لا تكون أكثر من سنة بيضاء أى سنة قمرية أى ٣٥٤ يوما ، وهو رأى فى مذهب مالك .

(وكل شىء عنده بمقدار) أى ولكل شىء ميقات معين لا يعدوه زيادة ولا نقصا « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ » .

وفى معنى الآية قوله تعالى « إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » وفى الحديث « إن إحدى بنات النبى صلى الله عليه وسلم بعثت إليه رسولا : أن ابنا لها فى الموت وأنها تحب أن تحضره ، فبعث إليها يقول « إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شىء عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر ولتحتسب » .

(عالم الغيب والشهادة) أى عالم ما هو غائب عنكم لا تدركه أبصاركم من عوالم لا نهاية لها ، فقد أثبت العلم حديثا أن هناك عوالم لا تراها العين المجردة بل ترى بالمنظار المعظم (التليسكوب) ومنها الجراثيم (المكروبات) التى تولد كثيرا من الأمراض التى قد يعسر شفاؤها أو يتعذر فى كثير من الأحوال كجراثيم السرطان والسل والزهرى ، أو تشفى بعد حين كجراثيم الجُدَرِىّ و (الدفتيريا) والحصبة ونحوها وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ » ، وما تشاهدونه وترونه بأعينكم « وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » .

(الكبير المتعال) أى هو العظيم الشأن الذى يجل عما وصفه به الخلق من صفات المخلوقين ، المستعلى على كل شىء بقدرته وجبروته وهو وحده الذى له التصرف فى ملكوته .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى قادر على البعث الذى أنكروه ، والآيات التى اقترحوها ، والعذاب الذى استعجلوه ، وإنما يؤخر ذلك لمصلحة لا يدركها البشر فيخفى عليه سرها .

وفى معنى الآية قوله « سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ » .

ثم بين أن علمه تعالى شامل لجميع الأشياء فقال .

(سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به) أى من أسر قوله وأخفاه ولم يتلفظ به ، أو جهر به وأظهره فهو سواء عند الله يسمعه ولا يخفى عليه شىء منه كما قال « وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » وقال « وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » قالت عائشة : سبحان الذى وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى جنب البيت وإنه ليخفى علىّ بعض كلامها فأنزل الله « قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ، وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » .

(ومن هو مستخف بالليل) أى مختف فى عقر داره فى ظلام الليل .

(وسارب بالنهار) أى ظاهر ماش فى بياض النهار ، فكلاهما عند الله سواء ، وروى عن ابن عباس فى تفسير ذلك : هو صاحب ريبة مستخف بالليل ، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه برىء من الإثم .

(له معقبات من بين يديه ومن خلفه) أى للانسان ملائكة يتعاقبون عليه : حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من المضار ويراقبون أحواله ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ أعماله من خير أوشر ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال

يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلا ، حافظان وكاتبان كما جاء فى الحديث الصحيح « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون » .

وإذا علم الإنسان أن هناك ملائكة تحصى عليه أعماله كان حذرا من وقوعه فى المعاصى خيفة أن يطلع عليه الكرام الكاتبون ويزجره الحياء عن الإقدام على فعل الموبقات كما يحذر من الوقوع فيها إذا حضر من يستحى منه من البشر ، وهو أيضا إذا علم أن كل عمل له فى كتاب مدخر يكون ذلك رادعا له داعيا إلى تركه .

وليس أمر الحفظة بالبعيد عن العقل بعد أن أثبته الدين وبعد أن كشف العلم أن كثيرا من الأعمال العامة يمكن إحصاؤها بآلات دقيقة لاتدع منها شيئا إلا تحصيه ، فقد أصبحت المياه والكهرباء فى المدن تعد بالآلات (العدادات) فالمياه التى يشربونها والكهرباء التى يضيئون بها منازلهم تحصى وتعد كما يعد الدرهم والدينار ، وكذلك هناك آلات تحصى المسافات التى تقطعها السيارات فى سيرها ، وأخرى تحصى تيارات الأنهار ومساقط المياه إلى غير ذلك من دقيق الآلات التى لا تترك صغيرة ولا كبيرة من الأعمال إلا تكتبها وتحصيها .

وكلما تقدمت العلوم وكشفت ما كان غائبا عنا كان فى ذلك تصديق أيما تصديق لنظريات الدين ووسيلة حافزة إلى الاعتراف بما جاء فيه مما يخفى على بعض الماديين الذين لايقرون إلا بما يرونه رأى العين ولا يذعنون إلا بما يقع تحت حسهم ، وبهذا يصدق قول القائل (الدين والعقل فى الإسلام صنوان لايفترقان ، وصديقان لايختلفان) .

(يحفظونه من أمر الله) أى هم يحفظونه بأمر الله وإذنه وجميل رعايته وكلاءته ، فكما جعل سبحانه للمحسوسات أسبابا محسوسة ربط بها مسبباتها على حسب ما اقتضته حكمته ، فجعل الجفن سببا لحفظ العين مما لم يرد أن يكون ، كذلك

جعل لغير المحسوسات أسبابا ، فجعل الملائكة أسبابا للحفظ ، وأفعاله تعالى لاتخلو من الحكم والمصالح .

وكذلك جعل لحفظ أعمالنا كراما كاتبين وإن كنا لاندرى ماقلمهم وما مدادهم وكيف كتابتهم وأين محالهم وما حكمة ذلك ، مع أن علمه تعالى بأعمال الإنسان كاف فى الثواب والعقاب عليها ، وقد يكون من حكمة ذلك أنه إذا علم الإنسان أن أعماله محفوظة لدى الحفظة الكرام كان أجدر بالإذعان لما يلقاه من ثواب وعقاب يوم العرض والحساب .

ولمفسرى السلف أقوال فى الآية . قال ابن عباس : هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم ويحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، وذلك الحفظ من أمر الله وبإذن الله ، لأنه لا قدرة الملائكة ولا لأحد من الخلق أن يحفظ أحدا من أمر الله وبما قضاه عليه إلا بأمره وإذنه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه . وقال على : ليس من عبد إلا ومعه ملائكة يحفظونه من أن يقع عليه حائط أو يتردى فى بئر أو يأكله سبع أو يغرق أو يحرق ، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر اهـ .

(إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) أى إن الله لايغير ما بقوم من نعمة وعافية فيزيلها عنهم ويذهبها حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضا واعتداء بعضهم على بعض ، وارتكابهم للشرور والموبقات التى تقوض نظم المجتمع وتفتك بالأمم كما تفتك الجراثيم بالأفراد .

روى أن أبا بكر قال : قال صلى الله عليه وسلم « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب » ويرشد إلى صحة هذا قوله تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » وقد بسطنا هذا فيما سلف فى مواضع متعددة وأشار إليه المحقق المؤرخ ابن خلدون فى مقدمة التاريخ وعقد له بابا جعل عنوانه (فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران) واسترسل فيه على النهج المعروف عنه وضرب له الأمثلة عما حدث فى كثير من الأمم قبل الإسلام

و بعده و بين أن الظلم قد ثل عروشها وأذل أهلها وجعلها طعمة للآكلين ومثلا للآخرين .

وفى حال الأمم الإسلامية اليوم وقد اجتثت من أطرافها وتحكم فيها أهل الغرب وأذلوها بعد أن استعمروها عبرة لمن تدبر وألقى السمع وهو شهيد ، والقرآن شاهد على صدق هذه النظرية ، كما قال : « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » وقوله « إِنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أى الصالحون لاستعمارها والانتفاع بخيراتها ما ظهر منها وما بطن .

(و إذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له) أى و إذا أراد الله بقوم سوءا من مرض وفقر ونحوهما من أنواع البلاء بما كسبت أيديهم حين أخذوا فى الأسباب التى تصل بهم إلى هذه الغاية ، فلا يستطيع أحد أن يدفع ذلك عنهم ولا يرد ما قدره لهم .

وفى هذا إيماء إلى أنه لاينبغى الاستعجال بطلب السيئة قبل الحسنة ، وطلب العقاب قبل الثواب فإنه متى أراد الله ذلك وأوقعه بهم فلا دافع له .

والخلاصة — إنه ليس من الحكمة فى شىء أن يستعجلوا ذلك .

(وما لهم من دونه من وال) أى وما لهم من دون الله سبحانه من يلى أمورهم فيجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر ، فالآلهة التى اتخذوها لاتستطيع أن تفعل شيئا من ذلك ولا تقدر على دفع الأذى عن نفسها فضلا عن دفعه عن غيرها .

ولله در الأعرابى الذى رأى صنما يبول عليه الثعلب فثارت به حميته فأمسكه وكسره إرْباً إرْباً وقال :

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » .

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ

فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ، وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥).

شرح المفردات

البرق : ما يرى من النور لامعا خلال السحاب ، والرعد : هو الصوت المسموع خلال السحاب . وسببهما على ما بين فى العلوم الطبيعية ـ أن البرق يحدث من تقارب سحابتين مختلفى الكهربائية ، حتى يصير ميل إحداهما للاقتراب من الأخرى أشد من قوة الهواء على فصلها ، فتهجم كل منهما على الأخرى بنور زاهر وصوت قوى شديد ، فذلك النور هو البرق . والصوت هو الرعد الذى نشأ من تصادم دقائق الهواء الذى تطرده كهربائية البرق أمامها ، والصواعق : واحدها صاعقة . وسببها أن السحب قد تمتلىء بكهربائية والأرض بكهربائية أخرى والهواء يفصل بينهما ، فإذا قاربت السحب وجه الأرض تنقص الشرارة الكهربائية منها فتنزل صاعقة تهلك الحرث والنسل ، والمجادلة : من الجدل وهو شدة الخصومة ، وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله كأن المجادلين يفتل كل منهما الآخر عن رأيه ، والمحال : أى المماحلة والمكايدة لأعدائه ، يقال محل فلان بفلان إذا كايده وعرضه للهلاك ، وتمحل إذا تكلف فى استعمال الحيلة ، فى ضلال : أى ضياع وخسار ، والظلال : واحدها ظل وهو الخيال الذى يظهر للجرم ، والغدو : واحدها غداة كقنى وقناة وهى أول النهار، والآصال ، واحدها أصيل : ما بين العصر والمغرب .

المعنى الجملى

بعد أن خوّف سبحانه عباده بأنه إذا أراد السوء بقوم فلا يدفعه أحد ــ أتبعه بذكر آيات تشبه النعم والإحسان حينا وتشبه العذاب والنقم حينا آخر .

روى « أن عامر بن الطُّفَيْل وأَرْبَدَ بن ربيعة أخا لبيد وفدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما ذلك ، فقال له عامر لعنه الله : أما والله لأملأنها عليك خيلا جُرْدا ورجالا مُرْدا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يأبى الله عليك ذلك وابنا قَيْلَة (الأنصار من الأوس والخزرج) ثم إنهما همّا بالفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل أحدهما يخاطبه والآخر يستلّ سيفه ليقتله من ورائه ، فحماه الله تعالى منهما وعصمه ، فخرجا من المدينة وانطلقا فى أحياء العرب يجمعان لحربه ، فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته ، وأرسل الطاعون على عامر فخرجت فيه غُدَّة كغدة البكر ، فآوى إلى بيت سلوليّة وجعل يقول : (غُدَّة كغُدَّةِ البكر وموت فى بيت سلولية ، حتى مات) وأنزل الله فى مثل ذلك « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله » » .

الإيضاح

(هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا) أى إنه سبحانه يسخر البرق فيخاف منه بعض عباده كالمسافر ومن فى جَرِينِه التمر والزبيب للتجفيف ، ويطمع فيه من له فيه النفع كمن يرجو المطر لسقى زرعه ، وهكذا حال كل شىء فى الدنيا هو خير بالنظر إلى من يحتاج إليه فى أوانه ، وشر بالنظر إلى من يضره على حسب مكانه أو زمانه .

(وينشئ السحاب الثقال) أى ويوجد السحب منشأة جديدة ممتلئة ماء فتكون ثقيلة قريبة من الأرض .

(ويسبح الرعد بحمده) أى إن فى صوت الرعد لدلالة على خضوعه وتنزيهه

عن الشريك والعجز كما يدل صوت المسبح وتحميده على انقياده لقدرة ذلك الحكيم الخبير، ونحو الآية قوله سبحانه : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

أخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وغيرهم عن ابن عمر « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد والصواعق يقول : اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » .

وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا هبت الريح أو سمع صوت الرعد تغير لونه حتى يُعرف ذلك فى وجهه ، ثم يقول للرعد : سبحان من سبّحت له ، وللريح : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا » .

(والملائكة من خيفته) أى ويسبح الملائكة الكرام من هيبته وجلاله ، وينزهونه عن اتخاذ الصاحبة والولد .

(ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) إصابته بها فيهلكه .

(وهم يجادلون فى الله) أى يجادلون فى شأنه تعالى وفيما وصفه به الرسول الكريم من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية وإعادة الناس للجزاء على أعمالهم يوم العرض والحساب .

وفى هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم فإنه لما نعى على كفار قريش عنادهم فى اقتراحهم الآيات الحسية كآيات موسى وعيسى عليهما السلام ، وإنكارهم كون الذى جاء به عليه السلام آية ــ سلاه بما ذكر كأنه قال له : إن هؤلاء لم يقصروا جحدهم وإنكارهم على النبوة بل تخطوه إلى الألوهية ، ألا تراهم مع ظهور الآيات البينات على التوحيد يجادلون فى الله باتخاذ الشركاء وإثبات الأولاد له ، ومع إحاطة علمه وشمول قدرته ينكرون البعث والجزاء والعرض للحساب ، ومع شديد بطشه وعظيم سلطانه يقدمون على المكايدة والعناد ، فهوّن عليك ولا تذهب نفسك عليهم حسرات .

(وهو شديد المحال) أى وهو سبحانه لايغالب فهو شديد البطش والكيد لأعدائه يأتيهم من حيث لايحتسبون ولا يترقبون ، وهو القادر على أن ينزل عليهم عذابا من عنده لايستطيعون حيلة لدفعه ولا قوة على رده ، لكنه يمهلهم لأجل معلوم على حسب ما تقتضيه الحكمة كما صح فى الحديث : « إن ربك لايهمل ولكن يمهل » ومثل الآية قوله : « وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » وقوله : « وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ » .

قال ابن جرير فى تفسير ذلك : والله شديدة مما حلته فى عقوبة من طغى عليه وعتى وتمادى فى كفره .

(له دعوة الحق) أى له تعالى الدعاء والتضرع الواقع حيث ينبغى أن يكون ، والمجاب حين وقوعه ، أى إن إجابة ذلك له تعالى دون غيره .

وفى هذا وما قبله وعيد للكفار على مجادلتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم ، وتهديدهم بإجابة دعائه عليه السلام إن دعا عليهم . وقيل دعوة الحق كلمة التوحيد: أى لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له ، وإنه شرعها وأمر بها .

(والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه) أى والأصنام الذين يدعوهم المشركون ويتضرعون إليهم ويتجاوزون الله لايجيبونهم بشىء مما يريدونه من نفع أو ضر إلا كما يجيب الماء لمن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لاشعور له ببسط الكفين ولا قبضهما ، فكيف يجيب دعاءه ، وهكذا أصنامهم لاتحير جوابا .

وخلاصة ذلك — إنه شبه آلهتهم حين استكفوا بهم ما أهمهم ، وهم لايشعرون بشىء فضلا عن أن يجيبوا أحدا ــ بماء بمرأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه هلمّ أقبل إلىّ وهو لايستطيع ردا ولا جوابا .

(وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) أى فى ضياع وخسار ، فإن دعَوُا الله لم يجبهم ، وإن دعوا الأصنام لم تستطع إجابتهم .

ثم بين عظيم قدرته تعالى فقال :

(ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها) أى وينقاد لعظمته كل شىء ، فيخضع له الملائكة والمؤمنون من الثقلين طوعا فى الشدة والرخاء ، والكفار كرها فى حال الشدة كما جاء فى آيات كثيرة كقوله : « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ » وقوله : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » وقوله « لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » .

(وظلالهم بالغدو والآصال) أى وتسجد أيضا ظلال كل من كفر بالله طوعا أو كرها بالغدوات والعشايا تبعا لانقياد الأجسام التى تشرق عليها الشمس ، فيصرفها الله تعالى بالمد والتقلص ، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر لظهور الامتداد والتقلص فيهما ، أو المراد بهما الدوام كما جاء ذلك كثيرا فى استعمالاتهم .

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ ، قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا ؟ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ؟ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ؟ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن كل من فى السموات والأرض خاضع لقدرته منقاد لإرادته بالغدو والآصال ، وفى كل وقت وحين ، طوعا أو كرها على حسب ما يريد

أعاد الكلام مع المشركين ليلزمهم الحجة ويقنعهم بالدليل ويضيق عليهم باب الحوار حتى لا يستطيعوا الفرار من الاعتراف بوحدانيته وشمول قدرته وإرادته وأنه لا معبود سواه ولا رب غيره .

الإيضاح

(قل من رب السموات والأرض) أى قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين اتخذوا من دونه أولياء : من رب هـذه الأجرام العلوية والسفلية التى تبهر العقول بجميل صنعها وكامل ترتيبها ووضعها ؟

(قل الله) أى قل لهم : الذى خلقها وأنشأها وسواها على أتم وضع وأحكم بناء هو الله ، وقد أُمِرَ عليه السلام ليجيب بذلك للإشارة إلى أنه هو وهم سواء فى ذلك الجواب الذى لا محيص منه وهم لا ينكرونه البتة كما قال تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » .

(قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟) أى قل لهم بعد أن ثبت هـذا لديكم : فلم اتخذتم لأنفسكم من دون الله معبودات هى جمادات لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا ؟ فكيف تنفع غيرها أو تضر ؟ وإذا لم يكن لها القدرة على شىء من ذلك فعبادتها محض السفه الذى لا يرضاه لنفسه رشيد يزن أعماله بميزان الحكمة والمصلحة .

وخلاصة ذلك — أفبعد أن علمتم أنه هو الخالق لهذا الخلق العظيم تتخذون من دونه أولياء هم غاية فى العجز ؟ وجعلتم ما كان يجب أن يكون سببا فى الاعتراف بالوحدانية وهو علمكم بذلك ـ سببا فى إشراككم به سواه من أضعف خلقه ، وهو بمعنى قوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ » ثم ضرب مثلا المشركين الذين يعبدون الأصنام والمؤمنين الذين يعترفون بأن لا رب غيره ولا معبود سواه ، فقال :

(قل هل يستوى الأعمى والبصير) أى قل لهم مصورا سخيف آرائهم مفندا قبيح معتقداتهم : هل يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا ولا يهتدى لحجة يسلكها إلا بأن يُهدى بدليل ، والبصير الذى يهدى الأعمى لسلوك الطريق ؟ لاشك أن الجواب أنهما غير متساويين ، فكذلك المؤمن الذى يبصر الحق فيتبعه ويعرف الهدى فيسلكه ، لا يستوى وإياكم ؟ وأنتم لاتعرفون حقا ولا تبصرون رشدا .

ثم ضرب مثلا للكفر والإيمان بقوله :

(أم هل تستوى الظلمات والنور) أى هل تستوى الظلمات التى لاترى فيها الطريق فتسلك ، والنور الذى يبصر به الأشياء ، ويجلو ضوؤه الظلام - لاشك أن الجواب عن ذلك أنهما لايستويان ، فكذلك الكفر بالله صاحبه منه فى حيرة ، يضرب أبدا فى غمرة ، لايهتدى إلى حقيقة ولا يصل إلى صواب ، والإيمان بالله صاحبه منه فى ضياء ، فهو يعمل على علم بربه ومعرفة منه بأنه يثيبه على إحسانه ويعاقبه على إساءته ويرزقه من حيث لايحتسب ، ويكلؤه بعنايته فى كل وقت وحين ، فهو يفوض أمره إليه إذا أظلمت الخطوب ، وتعقدت فى نظره مدلهمات الحوادث .

(أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) أى أخلق أوثانكم التى اتخذتموها معبودات من دون الله ، خلقا كخلقه ، فاشتبه عليكم أمرها فيما خلقت وخلق الله ، فجعلتموها له شركاء من أجل ذلك - أم إنما بكم الجهل والبعد عن الصواب ، إذ لايخفى على من له مُسْكة من العقل أن عبادة مالا يضر ولا ينفع من الجهل بحقيقة المعبود ومن يجب له التذلل والخضوع والإنابة والزلفى والإخبات إليه ، وإنما الواجب عبادة من يرجى نفعه ويخشى عقابه وضره ، وهو الذى يرزقه ويمونه آناء الليل وأطراف النهار .

ثم ذكر فذلكة لما تقدم ونتيجة لما سبق من الأدلة والأمثال التى ضربت لها فقال :

(قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار) أى قل مبينا لهم وجه الحق :

الله خالقكم وخالق أوثانكم وخالق كل شىء ، وهو الفرد الذى لا ثانى له ، الغالب على كل شىء سواه ، فكيف تعبدون غيره وتشركون به ما لا يضر ولا ينفع .

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) .

شرح المفردات

الأودية : واحدها وادٍ، وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء، والفُرْجة بين الجبلين ، وقد يراد به الماء الجارى فيه ، بقدرها : أى بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة على حسب تفاوت أمكنتها صغرا وكبرا ، واحتمل : أى حمل ، والزبد : مايعلو وجه الماء حين الزيادة كالحبَب ، وما يعلو القِدر عند غليانها ، والرابى : العالى المرتفع فوق الماء الطافى عليه ، والجُفاء : ما رمى به الوادى من الزبد إلى جوانبه .

المعنى الجملى

بعد أن ضرب الله مثل البصير والأعمى للمؤمن والكافر ، ومثل النور والظلمات للإيمان والكفر ـ ضرب مثلين للحق فى ثباته وبقائه ، وللباطل فى اضمحلاله وفنائه

ثم بين مآل كل من السعداء والأشقياء وما أعد لكل منهما يوم القيامة ، وبين أن حاليهما لايستويان عنده ، وأن الذى يعى تلك الأمثال ويعتبر بها إنما هو ذو اللب السليم والعقل الراجح والفكر الثاقب .

الإيضاح

(أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا) أى أنزل من السحاب مطرا فسالت مياه الأودية على حسب مقدارها فى الصغر والكبر، فحمل السيل الذى حدث من ذلك الماء زبدا عاليا مرتفعا فوقه طافيا عليه — وهذا هو المثل الأول الذى ضرب به الله للحق والباطل والإيمان والكفر .

(ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) أى ومن الذى يطرحه الناس فى النار من ذهب أوفضة وكذلك من سائر الفِلِزّات كالحديد والنحاس والرصاص — زبد راب كما يطفو على الماء فى الأودية زبد مثله ، ويتخذ من الذهب والفضة حلى ، ومن الحديد والرصاص والنحاس وما أشبه ذلك متاع وهو ما يتمتع به الناس كالأوانى والقدور وغيرها من آلات الحرث والحصد وأدوات المصانع وأدوات القتال والنزال ، وهذا هو المثل الثانى .

(كذلك يضرب الله الحق والباطل) أى وما مثل الحق والباطل إذا اجتمعا إلا مثل السيل والزبد ، فكما أن الزبد لايثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك فى النار بل يذهب ويضمحل ، فالباطل لاثبات له ولا دوام أمام الحق ، وقد فصل هذا بقوله .

(فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض) أى فأما الزبد الذى يعلو السيل فيذهب فى جانبى الوادى ويعْلَق بالشجر وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولايرجع منه شىء وأما ماينفع الناس من الماء والذهب والفضة فيمكث فى الأرض ، فالماء نشربه ونسقى به الأرض

فينبت جيد الزرع الذى ينتفع به الناس والحيوان ، والذهب والفضة نستعملها فى الحلىّ وصكّ النقود ، والحديد والنحاس ونحوهما نستعملها فى متاعنا من الحرث والحصد وفى المعامل والمصانع ووسائل الدفاع ونحو ذلك .

وخلاصة المثلين — إنه تعالى مثل نزول الحق وهو القرآن الكريم من حضرة القدس على القلوب الخالية منه المتفاوتة الاستعداد فى ملاحظته وحفظه ، وفى استذكاره وتلاوته ، وهو وسيلة الحياة الروحية والفضائل النفسية والآداب المرضية ـ بماء نزل من السماء فى أودية قاحلة لم يكن لها سابق عهد به ، وسال بمقدار اقتضت الحكمة أن يكون نافعا فى إحياء الأرض وما عليها جالبا اسعادة الإنسان والحيوان ، وكذلك جعله حلية تتحلى بها النفوس وتصل بها إلى السعادة الأبدية ، ومتاعا يتمتع به فى المعاش والمعاد ومثّله بالذهب والفضة وسائر الفلزات التى يتخذ منها أنواع الآلات والأدوات وتبقى منتفعا بها ردَحا طويلا من الزمن .

ومثّل الباطل الذى ابتلى به الكفرة لفقد استعدادهم لعمل الخير بما ران على قلوبهم من شرور المعاصى واجتراح الآثام ـ بالزبد الرابى الذى يطفو على الماء ، أو يخرج من خبث الحديد والنحاس والفضة والذهب ونحوها ويضمحل سريعا ويزول .

وقال الزجاج : مثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان له كمثل الماء المنتفع به فى نبات الأرض وحياة كل شىء ، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر ، لأنها كلها تبقى منتفعا بها ، ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذى يذهب جفاء ، وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذى لاينتفع به .

(كذلك يضرب الله الأمثال) أى ومثل ضربنا لهذه الأمثال البديعة التى توضح للناس ما أشكل عليهم من أمور دينهم وتظهر الفوارق بين الحق والباطل والإيمان والكفر ـ نضرب لهم الأمثال فى كل باب حتى تستبين لهم طرق الهدى فيسلكوها وطرق الباطل فينحرفوا عنها وتتم لهم سعادة المعاش والمعاد ويكونوا المُثُل

العليا بين الناس : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » .

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشب ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعَوْا وسقَوْا وزرعوا ، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ــ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى به ونفع به الناس فعلِم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

وروى أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفَراش وهذه الدواب التى يقعن فى النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها ــ فذلك مثلى ومثلكم أنا آخذ بحُجزكم عن النار ، هلمّ عن النار فتغلبونى فتقتحمون فيها » .

وبعد أن بين سبحانه شأن كل من الحق والباطل فى الحال والمآل وأتم البيان شرع يبين حال أهلهما مآلا ترغيبا فيهما وترهيبا وتكملة لوسائل الدعوة إلى الحق والخير ، وتنفيرا عن سلوك طرق الباطل والشر فقال :

(للذين استجابوا لربهم الحسنى) أى للذين أطاعوا الله ورسوله وانقادوا لأوامره وصدقوا ما أخبر به فيما نزل عليه من عند ربه ــ المثوبة الحسنى الخالصة من الكدر والنصب ، الدائمة المقترنة بالتعظيم والإجلال ، والآية بمعنى قوله : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » وقوله : « وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا » .

(والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به ،

أولئك لهم سوء الحساب، ومأواهم جهنم وبئس المهاد) أى والذين لم يطيعوا الله ولم يمتثلوا أوامره ولم ينتهوا عما نهوا عنه ، فقد جعل الله لهم ثلاثة أنواع من العذاب والعقوبة .

(١) إنهم من شدة ما يرون من العذاب لو استطاعوا أن يجعلوا ما فى الأرض جميعا ومثله معه فدية لأنفسهم لفعلوا ، فإن المحبوب أوّلا لكل إنسان هو ذاته ، وما سواها فيحب لكونه وسيلة إلى مصالحها ، فإذا كان مالكا لهذا العالم كله ولما يساويه جعله فداء لنفسه .

وفى هذا من التهويل الشديد ومن سوء ما يلقاهم فى ذلك اليوم ، ما لا يخفى على من اعتبر وتذكر .

(٢) سوء الحساب ، فيناقشون على الجليل والحقير ، وفى الحديث « من نوقش الحساب عذب » ذاك أن كفرهم أحبط أعمالهم ، وارتكابهم للشرور والآثام ران على قلوبهم وجعلها تستمرئ الغواية والضلالة ، وحبهم للدنيا جعلهم يعرضون عما يقربهم إلى الله زلفى فباءوا بالخسران والهوان والنكال .

(٣) إن مأواهم جهنم وبئس المسكن مسكنهم يوم القيامة ، إذ أنهم غفلوا عما يقربهم إلى ربهم وينيلهم القرب من كرامته ، واتبعوا أهواءهم وانغمسوا فى لذاتهم فحقت عليهم كلمة ربك .

ونزل فى حمزة رضى الله عنه وأبى جهل كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى :

(أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) أى لا يستوى من يعلم أن الذى أنزله الله عليك من ربك هو الحق الذى لا شك فيه ولا امتراء . ومن لا يعلم فهو أعمى لا يهتدى إلى خير يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد إليه ولا صدقه ، فيبقى حائرا فى ظلمات الجهل وغياهب الضلالة .

قال قتادة : هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه ، وهؤلاء كمن هو أعمى عن الحق فلا يبصره ولا يعقله اه .

(إنما يتذكر أولوا الألباب) أى إنما يعتبر بهذه الأمثال و يتعظ بها و يصل إلى لبّها وسرها إلا أولو العقول السليمة والأفكار الرجيحة .

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) .

شرح المفردات

يدرءون : أى يدفعون ، والعدن : الإقامة، يقال عدن بمكان كذا: إذا استقر، ومنه المعدن لمستقر الجواهر ، والدار : هى دار الآخرة .

المعنى الجملى

بعد أن ضرب الله الأمثال لمن اتبع الحق وسلك سبيل الرشاد ، ولمن ركب رأسه وسار فى سبل الضلالة لايلوى على شىء ولا يقف لدى غاية ـ بين أن من جمع صفات الخير الآتية يكون ممن اتبعوا الحق وملكوا نواحى الإيمان وأقاموا دعائمه، وهؤلاء قد كتب الله لهم حسنى العقبى والسعادة فى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(الذين يوفون بعهد الله) أى الذين يوفون بما عقدوه على أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم وفيما بينهم وبين العباد ، وشهدت فطرهم فى هذه الحياة بصحته ، وأنزل عليهم فى الكتاب إيجابه .

قال قتادة : إن الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق فى بضع وعشرين موضعا من القرآن عناية بأمره واهتماما بشأنه .

(ولا ينقضون الميثاق) أى الميثاق الذى وثقوه بينهم وبين ربهم من الإيمان به، وبينهم وبين الناس من العقود كالبيع والشراء وسائر المعاملات ، والعهود التى تعاهدوا على الوفاء بها إلى أجل ، وفى الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدّث كذب » .

(والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) أى يصلون الرحم التى أمرهم الله بوصلها فيعاملون الأقارب بالمودة والحسنى ، ويحسنون إلى المحاويج وذوى الخلة منهم بإيصال الخير إليهم ودفع الأذى عنهم بقدر الاستطاعة ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سره أن يبسط فى رزقه ، وأن ينسأ له فى أجله فليصل رحمه » وإنساء الأجل: تأخيره ، وذلك بالبركة له فيه فكأنه قد زاد . ويدخل فى ذلك جميع حقوق الله وحقوق عباده؛ كالإيمان بالكتب والرسل، ووصل قرابة المؤمنين بسبب الإيمان؛ كالإحسان إليهم، ونصرتهم، والشفقة عليهم، وإفشاء السلام، وعيادة المرضى، ومراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء فى السفر، إلى غير ذلك .

أخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن البر والصلة ليخففان سوء الحساب يوم القيامة ثم تلا : والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » .

(ويخشون ربهم) الخشية : خوف مقرون بالتعظيم والعلم بمن تخشاه ، ومن ثم خص الله بها العلماء بدينه وشرائعه والعالمين بجلاله وجبروته فى قوله : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » والمراد أنهم يخشون ربهم ويخافونه خوف مهابة وإجلال .

(ويخافون سوء الحساب) أى يحذرون مناقشة الله إياهم الحساب ، وعدم الصفح لهم عن ذنوبهم ، فهم لرهبتهم جادون فى طاعته ، محافظون على اتباع أوامره وترك نواهيه .

(والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) الصبر : حبس النفس عن نيل ما تحب ، أى والذين صبروا على ما تكرهه النفس ويثقل عليها من فعل الطاعات وترك الشهوات طلبا لرضا ربهم من غير أن ينظروا إلى جانب الخلق رياء وسمعة ، ولا إلى جانب أنفسهم زينة وعجبا .

(وأقاموا الصلاة) أى أدوها على ما رسمه الدين من خشوع القلب واجتناب الرياء والخشية لله ، مع تمام أركانها وهيئاتها احتسابا لوجهه .

(وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) أى وأنفقوا بعض ما رزقناهم سرا فيما بينهم وبين ربهم ، وعلانية بحيث يراهم الناس ، سواء كان الإنفاق واجبا كالإنفاق على الزوجة والولد والأقارب الفقراء ، أم مندوبا كالإنفاق على الفقراء والمحاويج من الأجانب .

(ويدرءون بالحسنة السيئة) أى ويدفعون الشر بالخير ويجازون الإساءة بالإحسان ، فهو كقوله : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » ومن ثم قال ابن عباس : أى يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم .

(أولئك لهم عقبى الدار) أى أولئك الذين وصفناهم بتلك المحاسن والكمالات التى بلغت الغاية فى الشرف والكمال ـ هم الذين لهم العقبى الحسنة فى الدار الآخرة .

ثم بين هذه العقبى فقال :

(جنات عدن يدخلونها) أى تلك العقبى هى جنات إقامة يخلدون فيها لايخرجون منها أبدا .

ثم ذكر ما يكون فيها من الأنس باجتماع الأهل والمحبين الصالحين فقال :

(ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أى ويجمع فيها بينهم وبين أحبابهم من الآباء والأزواج والأبناء ممن عمل صالحا لتقرّ بهم أعينهم ويزدادوا سرورا برؤيتهم حتى لقد ورد أنهم يتذاكرون أحوالهم فى الدنيا فيشكرون الله على الخلاص منها .

وفى الآية إيماء إلى أنه فى ذلك اليوم لاتجدى الأنساب إذا لم يسعفها العمل الصالح ، فالآباء والأزواج والذرية لايدخلون الجنة إلا بعملهم ، وقد أشار إلى ذلك الكتاب الكريم : « يَوْمَ لاَيَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » وفى الحديث إن النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى مرض موته قال لفاطمة : « يا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا » .

ثم ذكر مالهم من الكرامة فيها بتسليم الملائكة عليهم فقال :

(والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) أى وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهنا للتسليم عليهم والتهنئة بدخول الجنة والإقامة فى دار السلام فى جوار الصدّيقين والأنبياء والرسل الكرام .

(سلام عليكم بما صبرتم) أى قائلين لهم : أمان عليكم من المكاره والمخاوف التى تحيق بغيركم ، بما احتملتم من مشاقّ الصبر ومتاعبه والآلام التى لاقيتموها فى دار الحياة الدنيا .

(فنعم عقبى الدار) أى فنعم عاقبة الدنيا الجنة .

أخرج ابن جرير «أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، وكذا كان يفعل أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم».

وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر أوصاف المتقين وما أعد لهم عنده فى دار الكرامة بما كان لهم من كريم الصفات، وفاضل الأخلاق ـ بين حال الأشقياء وما ينتظرهم من العذاب والنكال ، وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب على سنة القرآن الدائبة فى مثل هذا « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

الإيضاح

وصف سبحانه الأشقياء بصفات هى السبب فى خسرانهم :

(١) (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) أى ينقضون عهد الله الذى ألزمه عباده بما أقام عليه من الأدلة العقلية كالتوحيد والقدرة والإرادة والإيمان بالأنبياء والوحى ونحوها ، ونقضه إما بألا ينظروا فيه فلا يمكنهم العمل بموجبه ، وإما بأن ينظروا فيه ويعلموا صحته ثم هم بعدُ يعاندون فيه ولا يعملون بما علموه واعتقدوا صحته ، وقوله : من بعد ميثاقه أى من بعد اعترافهم به وإقرارهم بصحته .

(٢) (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) من الإيمان به وبجميع أنبيائه الذين جاءوا بالحق ، فآمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض وقطعوا الرحم وكانوا حربا على المؤمنين وعونا للكافرين ، ومنعوا المساعدات العامة التى توجب التآلف والمودة بين المؤمنين كما جاء فى الحديث: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وجاء أيضا «المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو اشتكى باقى الأعضاء بالسهر والحمى».

(٣) (ويفسدون فى الأرض) بظلمهم لأنفسهم وظلمهم لغيرهم بابتزاز أموالهم واغتصابها بلا حق ، وتهييج الفتن بين المسلمين وإثارة الحرب عليهم ، وإظهار العدوان لهم .

ثم حكم عليهم بما يستحقون بما دسوا به أنفسهم فقال :

(أولئك لهم اللعنة) أى أولئك الذين اتصفوا بهذه المخازى وسيء الصفات ، لهم بسبب ذلك الطردُ من رحمة ربهم ورضوانه ، والبعد من خيرى الدنيا والآخرة .

(ولهم سوء الدار) أى ولهم سوء العاقبة وهو عذاب جهنم جزاء وفاقا لما اجترحوه من السيئات وأتوه من الشرور والآثام .

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) .

شرح المفردات

يقدر : يضيق كقوله « وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » أى ضيّق والمراد أنه يعطيه بقدر كفايته لايفضل عنه شيء ، متاع : أى متعة قليلة لا دوام لها ولا بقاء ، وأناب: أى رجع عن العناد وأقبل على الحق ، وتطمئن : أى تسكن وتخشع ، وطوبى لهم : أى لهم العيش الطيب وقرة العين والغبطة والسرور ، والمآب : المرجع والمنقلب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من نقض عهد الله من بعد ميثاقه ولم يقرّ بوحدانيته وأنكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهو ملعون فى الدنيا ومعذب فى الآخرة - بين هنا أنه تعالى يبسط الرزق لبعض عباده ويضيقه على بعض آخر على ما اقتضته حكمته وسابق علمه بعباده ، ولا تعلق لذلك بإيمان ولا كفر ، فربما وسع على الكافر استدراجا له ، وضيق على المؤمن زيادة فى أجره ، ثم ذكر مقالة لهم كثر فى القرآن ترادها وهى طلبهم منه آية تدل على نبوته لإنكارهم أن يكون القرآن آية دالة على ذلك ، ثم ذكر حال المؤمنين المتقين ومآلهم عند ربهم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار .

الإيضاح

(الله يبسط الرزق لمن يشاء) أى الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ممن هو حاذق فى جمع المال وله من الحيلة فى الحصول على كسبه واستنباطه بشتى الوسائل ما يخفى على غيره ، ولا علاقة لهذا بإيمان وكفر ولا صلاح ومعصية .

(ويقدر) على من يشاء ممن هو ضعيف الحيلة فى كسبه ، وليس بالحوّل القلّب فى استنباط أسبابه ووسائله ، وما الغنى والفقر إلا حالان يمران على البرّ والفاجر كما يمر عليهما الليل والنهار والصباح والمساء .

ثم ذكر أن مشركى مكة بطروا بغناهم فقال :

(وفرحوا بالحياة الدنيا) أى وفرح الذين نقضوا العهد والميثاق ببسط الرزق فى الحياة الدنيا وعدّوه أكبر متاع لهم وأعظم حظوة عند الناس .

ثم بين لهم خطأهم فقال :

(وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع) أى وما نعيم الدنيا إذا قيس على نعيم الآخرة إلا نزر يسير سريع الزوال فهو كعجالة الراكب وزاد الراعى ، فلا حق

لهم فى البطر والأشر بما أوتوا من حظوظها وانتفعوا به من خيراتها ، فهم قد اعتزوا بالقليل السريع الزوال .

أخرج الترمذى عن المستورد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليمّ فلينظر بم يرجع ، وأشار بالسبابة » . وأخرج الترمذى وصححه عن ابن مسعود قال : « نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر فى جنبه ، فقلنا يارسول الله لو اتخذنا لك ، فقال مالى وللدنيا ، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

ولما أبان أنهم قد انخدعوا بالسراب ، واكتفوا بالحباب ، ذكر ماترتب على ذلك الغرور من اقتراحهم على رسوله صلى الله عليه وسلم الآيات فقال :

(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) أى ويقول الذين كفروا من أهل مكة كعبد الله بن أبىّ وأصحابه ، هلا أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم آية كما أرسل على الأنبياء والرسل السابقين كسقوط السماء عليهم كسفا ، أو تحويل الصفا ذهبا ، أو إزاحة الجبال من حول مكة حتى يصير مكانها مروجا وبساتين إلى نحو أولئك من الاقتراحات التى حكاها القرآن عنهم كقولهم : « فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ » وكأنهم لفرط عنادهم وعظيم مكابراتهم قد ادعوا أن ما أتى به من باهر الآيات كالقرآن وغيره ليس عندهم من الآيات التى توجب الإذعان والإيمان أو التى لاتقبل شكا ولا جدلا .

ثم أمر رسوله أن يبين لهم أن إنزال الآيات لادخل له فى هداية ولا ضلال بل الأمر كله بيده .

(قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب) أى إنه لافائدة لكم فى نزول الآيات إن لم يرد الله هدايتكم فلا تشغلوا أنفسكم بها ، ولكن تضرعوا إليه واطلبو منه الهداية ، فإن الضلال والهداية بيده وإليه مقاليدها ، وادعوه أن يهيئ

لكم من أمره رشدا ، وأن يمهد لكم وسائل النجاة والسعادة ، ويدفع عنكم نزغات الشيطان ووساوسه لتظفروا بالحسنى فى الدارين .

والخلاصة — إن فى القرآن وحده غنى عن كل آية ، فلو أراد الله هدايتكم لصرف اختياركم إلى تحصيل أسبابها وكان لكم فيه مرشد أيما مرشد ، ولكن الله جعلكم سادرين فى الضلالة لاتلوون على شىء ، ولا ينفعكم إرشاد ولا نصح ، لسوء استعدادكم وكثرة لجاجكم وعنادكم ، ومن كانت هذه حاله فأنّى له أن يهتدى ولوجاءته كل آية ؟ كما قال : « وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ » وقال : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » وقال : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ » .

أما من أقبلوا إلى الله وتأملوا فى دلائله الواضحة ، وسلكوا طرقه المعبّدة ، فالله ينير بصائرهم ويشرح صدورهم ، وهم لابد واصلون إلى الفوز بالحسنى ، وحاصلون على السعادة فى الدنيا والآخرة ، وهم من أشار إليهم بقوله :

(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله) أى هم الذين آمنوا وركنت قلوبهم إلى جانب الله وسكنت حين ذكره ، وإذا عرض لهم الشك فى وجوده ظهرت لهم دلائل وحدانيته فى آيات وعجائب الكائنات ، فرضى به مولى ورضى به نصيرا ، ومن ثم قال :

(ألا بذكر الله تطمئن القلوب) أى ألا بذكر الله وحده تطمئن قلوب المؤمنين ويزول القلق والاضطراب من خشيته ، بما يفيضه عليها من نور الإيمان الذى يذهب الهلع والوحشة ، وهى بمعنى قوله فى الآية الأخرى : « ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ » .

فالمؤمنون إذا ذكروا عقاب الله ولم يأمنوا من وقوعهم فى المعاصى وجلت قلوبهم كما قال : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت نفوسهم واطمأنت إلى ذلك الوعد وزال منها القلق والوحشة .

وفى الآية إيماء إلى أن الكفار أفئدتهم هواء إذ لم تسكن نفوسهم إلى ذكره ، بل سكنت إلى الدنيا وركنت إلى لذاتها .

ثم بين سبحانه جزاء المطمئنين وثوابهم فقال :

(الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) أى إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الفرح وقرة العين عند ربهم وحسن المآب والمرجع .

وفى هذا من الترغيب فى طاعته والتحذير من معصيته ومن شديد عقابه ما لا خفاء فيه .

وخلاصة ذلك — إن أهل الجنة منعمون بكل ما يشتهون كما جاء فى الحديث: « فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ، بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ، أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ

لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ؟ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤).

شرح المفردات

خلت: مضت، متاب: مرجعى، قطعت: شققت، ييأس: يعلم وهو لغة هوازن، قارعة: رزية تقرع القلوب، أمليت: أى أمهلت مدة طويلة فى أمن ودعة، قائم: رقيب ومتولّ للأمور، تنبئونه: تخبرونه، بظاهر من القول: أى بباطل منه لا حقيقة له فى الواقع، والسبيل: هو سبيل الحق وطريقه، والواقى: الحافظ.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه طلبهم من رسوله صلى الله عليه وسلم الآيات كما أنزل على الرسل السالفين كموسى وعيسى وغيرهم من النبيين والمرسلين، وبين أن الهدى هدى الله، فلو أوتوا من الآيات ما أوتوا ولم يرد الله هدايتهم فلا يجديهم ذلك فتيلا ولا قطميرا، ذكر هنا أن محمدا ليس ببدع من الرسل وأن قومه سبقهم أقوام كثيرون وطلبوا الآيات من أنبيائهم وأجابوهم إلى ما طلبوا ولم تغنهم الآيات والنذر فكانت عاقبتهم البوار والنكال، فأنزل على كل قوم من العذاب ما أتى عليهم جميعا وأصبحوا معه كأمس الدابر؛ ولو أن كتابا تسير به الجبال عن أماكنها أو تشقق به الأرض فتجعل أنهارا وعيونا لكان هذا القرآن الذى أنزلناه عليه، ثم أبان أن الله تعالى قادر على الإتيان بما اقترحوه لكنه لم يرد ذلك لأنه لا ينتج المقصود من إيمانهم.

ثم أتبع ذلك بالتيئيس منه وبالتهديد بقارعة تحل بهم ، و بتسلية النبي صلى الله عليه وسلم على استهزائهم به .

أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبى قال : قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كنت نبيا كما تزعم فباعد جبلَىْ مكة أخشبيها (اسمى الجبلين) هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة ، فإنها ضيقة حتى نزرع فيها ونرعى ، وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبى ، أو احملنا إلى الشام أو اليمن أو إلى الحيرة حتى نذهب ونجىء فى ليلة كما زعمت أنك فعلته فنزلت هذه الآية .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس أنهم قالوا : سَيِّرْ بالقرآن الجبال، قَطِّعْ بالقرآن الأرض ، أخرج به موتانا ، فنزلت .

الإيضاح

(كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك) أى كما أرسلنا إلى الأمم الماضية رسلا فكذبوهم ، كذلك أرسلناك فى هذه الأمة لتبليغهم رسالة الله إليهم ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم .

وخلاصة ذلك — إننا كما أرسلنا إلى أمم من قبلك وأعطيناهم كتبا تتلى عليهم، كذلك أرسلناك وأعطيناك هذا الكتاب لتتلوه عليهم ، فلماذا يقترحون غيره ؟.

(وهم يكفرون بالرحمن) أى وحالهم أنهم كفروا بمن أحاطت بهم نعمه ، ووسعت كل شىء رحمته، ولم يشكروا نعم فضله عليهم ولا سيما إحسانه إليهم بإرسالك و إنزال القرآن عليك وهو الكفيل بمصالح الدنيا والآخرة كما قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » .

وكفرهم به أنهم جحدوه بتاتا أو أثبتوا له الشركاء .

(قل هو ربى لا إله إلا هو) أى قل لهم : إن الرحمن الذى كفرتم به هو خالقى ومتولى أمرى ومبلغى مراتب الكمال . لا رب غيره ولا معبود سواه ، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . وعن قتادة قال : « ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية حين صالح قريشا كتب فى الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم . فقالت قريش أما الرحمن فلا نعرفه ، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ، فقال أصحابه دعنا نقاتلهم ، قال لا ، اكتبوا كما يريدون » اهـ .

(عليه توكلت) أى عليه لا على غيره توكلت فى جميع أمورى ولا سيما فى نصرتى عليكم .

(وإليه متاب) أى وإليه وحده توبتى ، وهو بمعنى قوله : « وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ » وفى هذا بيان لفضل التوبة ومقدار عظمها عند الله ، وبعثٌ للكفار على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجه وألطف سبيل ، إذ أُمِر بها عليه السلام وهو منزه عن اقتراف الذنوب فتوبتهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصى أحق وأجدر .

(ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) أى ولو ثبت أن كتابا سيرت بتلاوته الجبال وزعزعت من أماكنها كما فعل بالطور لموسى عليه السلام .

(أو قطعت به الأرض) أى شققت وجعلت أنهارا وعيونا كما حدث للحجر حين ضرب به موسى بعصاه .

(أو كلم به الموتى) أى أو كلم أحد به الموتى فى قبورهم بأن أحياهم بقراءته فتكلم معهم بعد كما وقع لعيسى عليه السلام ــ لو ثبت هذا الشىء من الكتب لثبت لهذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لما انطوى عليه من الآيات الكونية الدالة على بديع صنع الله فى الأنفس والآفاق ، واشتمل عليه من الحكم والأحكام التى فيها صلاح البشر وسعادتهم فى الدار الفانية والدار الباقية ، ومن قوانين العمران التى تكون خيرا لمتبعيها وفوزا لسالكيها ، وتجعل منهم خير أمة

أخرجت للناس ، وهذا بمعنى قوله : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » .

وخلاصة ذلك — لو أن ظهور أمثال ما اقترحوه مما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة ، لكان مظهر ذلك هو القرآن الذى لم يعدوه آية واقترحوا غيره .

ولا يخفى مافى هذا من تعظيم شأنه الكريم ، ووصفهم بسخف العقل وسوء التدبير والرأى ، وبيان أن تلك المقترحات لاينبغى أن يؤبه لها ولا يلتفت إليها ، لأنها صادرة عن التشهى والهوى والتمادى فى الضلال والمكابرة والعناد ، لاعن تقدير للأمور على وجهها الصحيح وتأمل فى حقائقها وما يجب أن يكون لها من الاعتبار .

ويجوز أن يكون المعنى — لو أن كتابا فعلت بوساطته هذه الأفاعيل العجيبة لما آمنوا به لفرط عنادهم وغلوهم فى مكابرتهم ، وهذا بمعنى قوله : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ » .

(بل لله الأمر جميعا) أى بل مرجع الأمور كلها بيد الله ، ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ، ومن يضلل فلا هادى له ، ومن يهد فما له من مضل .

وخلاصة ذلك — إن الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات ، لكن الإرادة لم تتعلق بذلك لعلمه أن قلوبهم لا تلين ولا يجدى هذا فائدة فى إيمانهم .

(أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) أى ألم يعلم الذين آمنوا أن الله تعالى لو شاء هداية الناس أجمعين لهداهم ، فإنه ليس ثمة حجة ولا معجزة أنجع فى العقول من هذا القرآن الذى لو أنزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، لكنه لم يشأ ذلك .

روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبى إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن

أ كون أ كثرهم تابعا يوم القيامة » يريد أن كل نبي انقرضت معجزته بموته ، وهذا القرآن حجة باقية على وجه الدهر لاتنقضى عجائبه ، ولا يخلَقُ على كثرة الردِّ ولايشبع منه العلماء .

(ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) أى ولا يزال الكافرون تصيبهم البلايا والرزايا من القتل والأسر والسلب والنهب بسبب تماديهم فى الكفر وتكذيبهم لك و إخراجك من بين أظهرهم .

(أو تحل قريبا من دارهم) أى أو تحل تلك القارعة قريبا من دارهم فيفزعون منها و يتطاير شررها إليهم .

(حتى يأتى وعد الله) أى حتى ينجز الله وعده الذى وعدك فيهم بظهورك عليهم وفتحك أرضهم وقهرك إياهم بالسيف .

(إن الله لايخلف الميعاد) أى إن الله منجزك ما وعدك من النصر عليهم ، لأنه لايخلف وعده كما قال : « فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ » .

ولما كان الكفار يسألون النبى صلى الله عليه وسلم هذه الآيات على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق عليه ويتأذى من تلك الكلمات أنزل الله تسلية له على سفاهة قومه قوله :

(ولقد استهزئ برسل من قبلك) أى إن يستهزئ بك هؤلاء المشركون من قومك و يطلبوا منك الآيات تكذيبا لما جئتهم به فاصبر على أذاهم وامض لأمر ربك فلقد استهزأت أمم من قبلك برسلهم .

ثم بين شأنه مع المكذبين فقال :

(فأمليت للذين كفروا) أى فتركتهم ملاوة أى مدة من الزمان فى أمن ودعة كما يملى للبهيمة فى المرعى .

(ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) أى ثم أحللت بهم عذابى ونقمتى حين تمادوا فى غيهم وضلالهم ، فانظر كيف كان عقابى إياهم حين عاقبتهم – ألم أذقهم أليم العذاب ، وأجعلهم عبرة لأولى الألباب ؟ .

وقد صدق الله وعده ونصر رسوله على عدوه ، فدخل فى دين الله من دخل ومن أبى قتل ، ودانت العرب كلها له وانضوت تحت لوائه وحقت عليهم كلمة ربك.

وفى هذا تعجب مما حل بهم ودلالة على شدته وفظاعة أمره كما لا يخفى .

ثم ذكر سبحانه ما يجرى مجرى الحجاج عليهم وما فيه توبيخ لهم وتعجيب من عقولهم ، وكيف إنها وصلت إلى حد لا ينبغى لعاقل أن يقبله ولا يرضى به فقال :

(أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى أفمن هو قائم بحفظ أرزاق الخلق ومتولى أمورهم وعالم بهم وبما يكسبونه من الأعمال من خير أو شر ولا يعزب عنه شىء – كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التى لا تسمع ولا تبصر ولا تدفع عن نفسها ولا عمن يعبدها ضرا ولا تجلب لهم نفعا .

وخلاصة ذلك — إنه لا عجب من إنكارهم لآياتك الباهرة مع ظهورها ، وإنما العجب كل العجب من جعلهم القادر على إنزالها المجازى لهم على إعراضهم عن تدبر معانيها – بقوارع تترى واحدة بعد أخرى يشاهدونها رأى العين – كمن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلا عن اتخاذه ربا يرجى نفعه أو يخشى ضره .

ونحو الآية قوله : « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا » وقوله : «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » وقوله : « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

ثم أكد هذا بقوله :

(وجعلوا لله شركاء) عبدوها معه من أصنام وأوثان وأنداد

ثم أعقب ذلك بتوبيخ إثر توبيخ فقال :

(قل سموهم) أي صفوهم فهل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة ، وقد يكون المعنى سموهم من هم وما أسماؤهم ؟ فإنهم ليسوا ممن يذكر ويسمى ، فإنما يسمى من ينفع ويضر .

(أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض) أي بل أتخبرونه بشركاء يستحقون العبادة لا يعلمهم ، أو تخبرونه بصفات لهم يستحقون لأجلها العبادة وهو لا يعلمها ، وفي هذا نفي لوجودها لأنها لو كانت موجودة لعلمها لأنه لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

(أم بظاهر من القول) أي بل أتسمونهم شركاء ظنا منكم أنها تنفع وتضر ، كما تسمونهم آلهة كما قال : «إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى» .

وخلاصة حجاجه على المشركين — نفي الدليل العقلي والدليل النقلي على أحقية عبادتها - فبعد أن هدم قاعدة الإشراك بقوله : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) زاد ذلك إيضاحا فقال : وليتهم إذ أشركوا بربهم الذي لا ينبغي أن يشرك به - أشركوا به من له حقيقة واعتبار ومن ينفع ويضر ، لا من لا اسم له فضلا عن المسمى ، بل من لا يعرف له وجود في الأرض ولا في السماء ، ويريدون أن ينبئوا عالم السر والنجوى بما لا يعلمه ، ثم زاد على ذلك فقال : وما تلك التسمية إلا بظاهر من القول من غير أن يكون تحتها طائل وما هي إلا أصوات جوفاء كثيرة المباني خالية من المعاني .

(بل زين للذين كفروا مكرهم) أي دع هذا الحجاج وألق به جانبا فإنه لا فائدة فيه ، لأنه زين لهم كيدهم لاستسلامهم للشرك وتماديهم في الضلال .

(وصدوا عن السبيل) أي وصرفوا عن سبيل الحق بما زين لهم من صحة ماهم عليه .

(ومن يضلل الله فما له من هاد) أى ومن يخذله الله لسوء اعتقاده وفساد أعماله واجتراحه للآثام والمعاصى فلا هادى له يوفقه إلى النجاة ويوصله إلى طرق السعادة .

ونحو الآية قوله: « وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا » وقوله : « إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » .

ثم بين عاقبة أمرهم فقال :

(لهم عذاب فى الحياة الدنيا) أى لهم عذاب شاق فى هذه الحياة بالقتل والأسر وسائر الآفات التى يصيبهم بها .

(ولعذاب الآخرة أشق) أى ولتعذيب الله إياهم فى الدار الآخرة أشد من تعذيبه إياهم فى الدنيا وأشق لشدته ودوامه .

ثم أيأسهم من صرف العذاب عنهم فقال :

(وما لهم من الله من واق) أى وما لهم حافظ يعصمهم من عذاب الله ، إذ لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ولا يأذن لأحد فى الشفاعة لمن كفر به ومات على كفره .

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ

اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) .

شرح المفردات

المثل : الصفة والنعت ، والأُكُل : مايؤكل ، والظل : واحد الظلال والظلول والأظلال ، والأحزاب : واحدهم حزب ، وهو الطائفة المتحزبة أى المجتمعة لشأن من الشئون كحرب أو عداوة أو نحو ذلك ، والمآب : المرجع ، والواقى : الحافظ ، والأجل : الوقت والمدة ، والكتاب : الحكم المعين الذى يكتب على العباد على حسب ما تقتضيه الحكمة ، والمحو : ذهاب أثر الكتابة ، وأمّ الكتاب : أصله وهو علم الله تعالى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ماأعده للكافرين من العذاب والنكال فى الدنيا والآخرة — أتبعه بذكر ثواب المتقين فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ثم أردفه بذكر فرح المؤمنين من أهل الكتاب بما أنزل عليه من ربه ، وإنكار بعض منهم لذلك ، ثم حث الرسول صلى الله عليه وسلم على القيام بحق الرسالة وتحذيره من مخالفة أوامره ، ثم ختم هذا بذكر الجواب عن شبهات كانوا يوردونها لإبطال نبوته صلى الله عليه وسلم كقولهم : إنه كثير الزوجات ، ولو كان رسولا من عند الله لما اشتغل بأمر النساء .

وخلاصة الجواب — إن محمدا ليس ببدع من الرسل ، فكثير منهم كان له أزواج وذرية ولم يقدح ذلك فى رسالاتهم ، وكقولهم : إنه لو كان رسولا من عند الله لم يتوقف فيما يطلب منه من المعجزات ، فأجيبوا بأن أمر المعجزات مفوض إلى الله إن شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها ، ولا اعتراض لأحد عليه ، وقولهم : إن ما يخوفنا به من العذاب وظهور النصرة له ولقومه لم يتحقق بعدُ فليس بنبى ولا صادق فيما يقول ،

فأجيبوا عن ذلك بقوله : لكل أجل كتاب : أى إن لكل حادث وقتا معينا لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، فتأخر المواعيد لا يدل على ما تدّعون .

الإيضاح

(مثل الجنة التى وعد المتقون) أى فيما نقصّه عليك صفة الجنة التى وعد الله المتقين وأعطاهم إياها كفاء إخباتهم له وإنابتهم إليــه ودعائهم إياه مخلصين له الدين لا شريك له .

(تجرى من تحتها الأنهار) سارحة فى أرجائها وجوانبها يصرفونها كيف شاءوا وأين أرادوا .

(أكلها دائم) أى فيها الفواكه والمطاعم والمشارب التى لا تنقطع عنهم ولا تبيد.

(وظلها) كذلك ، فليس هناك حر ولا برد ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة كما قال تعالى : « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا » .

وبعد أن وصف الجنة بهــذه الصفات الثلاث ــ بين أنها مآل المتقين ومنتهى أمرهم فقال :

(تلك عقبى الذين اتقوا) أى هذه الجنة عاقبة من اتقوا ربهم فأقلعوا عن الكفر والمعاصى واجتراح السيئات ، وعنَتْ وجوههم للحى القيوم وخافوا يوما تشيب من هوله الولدان وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

ثم بين عاقبة الكافرين بعد ما بين عاقبة المتقين فقال :

(وعقبى الكافرين النار) أى وعاقبة الكافرين بالله النار ، بما اقترفوا من الذنوب ودنّسوا به أنفسهم من الآثام .

وفى الآية فتح باب الطمع على مصراعيه للمتقين ، وإقفاله بالرّتاج على الكافرين .

ثم بين أن أهل الكتاب انقسموا فئتين: فئة فرحت بنزول القرآن وفرقة أنكرته وكفرت ببعضه فقال :

(والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) من القرآن لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به كما قال تعالى : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » وهم جماعة ممن آمن من اليهود كعبد الله ابن سَلَام وأصحابه ، ومن النصارى وهم ثمانون رجلا من الحبشة واليمن ونجران .

(ومن الأحزاب من ينكر بعضه) أى ومن جماعتهم الذين تحزبوا وتألبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ككعب بن الأشرف والسيد والعاقب أسقفى نجران وأشياعهم - من أنكر بعض القرآن وهو مالم يوافق ما حرفوه من كتابهم وشرائعهم .

ولما ذكر سبحانه اختلاف أهل الكتاب فى شأنه صلى الله عليه وسلم - بين بإيجاز ما يحتاج إليه المرء ليفوز بالسعادتين فقال :

(قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) أى قل لهم صادعا بالحق ولا تكترث بمن ينكره : إنى أمرت فيما أنزل إلىّ بأن أعبد الله وحده ولا أشرك به شيئا سواه ، وذلك ما لا سبيل إلى إنكاره وأطبقت عليه الشرائع والكتب كما قال: « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا » وذلك ما دلت الدلائل التى فى الآفاق والأنفس على وجوب الإذعان له والاعتراف به.

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

(إليه أدعو) أى إلى طاعته و إخلاص العبادة له وحده أدعو الناس .

(و إليه مآب) أى و إليه وحده مرجعى ومصيرى ومصيركم للجزاء ، ولا خلاف بيننا فى هذا ، فالعجب لكم أن تنكروا المتفق عليه وتختلفوا فيما لا محل للخلاف فيه .

وهذه الآية جامعة لشؤون النشأة الأولى والآخرة ، فقوله : (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) توحى إلى ما جاء به التكليف ، وقوله (إليه أدعو) تشير إلى مهامّ الرسالة ، وقوله : (و إليه مآب) تشير إلى البعث والجزاء للحساب يوم القيامة.

ثم بين سبحانه أنه أرسل رسوله بلغة قومه كما أرسل من قبله رسلا بلغات أقوامهم فقال :

(وكذلك أنزلناه حكما عربيا) أى وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب ، أنزلنا عليك القرآن حكما عربيا بلسانك ولسان قومك ليسهل عليهم تفهم معناه واستظهاره . وسمى القرآن حكما : أى فصلا للأمر على وجه الحق - لأن فيه بيان الحلال والحرام وجميع ما يحتاج إليه المكلفون ليصلوا إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وقد جاء بمعنى الآية قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » .

ثم إن أهل مكة دعوه إلى أمور يشاركهم فيها فقال :

(ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم) أى ولئن اتبعت أهواء هؤلاء الأحزاب ابتغاء رضاهم كالتوجه إلى قبلتهم وعدم مخالفتهم فى شىء مما يعتقدونه.

(مالك من الله من ولى ولا واق) أى ليس لك من دون الله ولىّ ولا ناصر ينصرك فينقذك منه إن هو أراد عقابك ، ولا واق يقيك عذابه إن هو عذبك ، فاحذر أن تتبع أهواءهم وتنهج نهجهم وقد تقدم أن مثل هذا من وادى قولهم : (إياك أعنى واسمعى يا جاره) فهو إنما جاء لقطع أطماع الكافرين وتهييج المؤمنين على الثبات فى الدين لا للنبى صلى الله عليه وسلم فهو بمكان لا يحتاج فيه إلى باعث ولا مهيج . ونزل : لما عابت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة النساء ، فقالوا لو كان نبيا كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء .

(ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) أى وكما أرسلناك رسولا بشريا ، كذلك بعثنا المرسلين قبلك بشرا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ويأتون الزوجات ويولد لهم .

وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وقد كان من حكمة تعدد زوجاته أمهات المؤمنين أن اطلعن منه على الأحوال الخفية التى تكون بين الرجل والمرأة وعلمن منه أحكامها ونشرنها بين المؤمنين ، وناهيك بأم المؤمنين عائشة وفيها يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذوا نصف دينكم عن هـذه الحميراء » ومن ثم كانت أكثر من حدث عن رسول الله بعد أبى هريرة وأكثر من حدث عن شمائله وأخلاقه فى السر والعلن ، ومنها علم المسلمون كثيرا من أحكام دينهم ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يختلفون إليها للحديث والفتيا وكانت تحاجهم وتجادلهم وتلزمهم الحجة ولا يجدون مَعْدِلا عن التسليم برأيها .

وروى أن المشركين طعنوا فى نبوته لعدم إتيانه بما يقترحونه من الآيات فنزل قوله :

(وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) أى وما كان فى وسع رسول من الرسل أن يأتى من أرسل إليهم بمعجزة يقترحونها إلا متى شاء الله وعلم أن فى الإتيان بها حكما ومصالح لعباده ، وقد جاء من الآيات بما فيه عبرة لمن اعتبر وغناء لمن تفكر وتدبر ، ولـكنهم أبوا إلا التمادى فى الغواية والضلال كما تقدم من مقال عبد الله ابن أبى أمية .

والآيات المقترحة لاتأتى إلا على مقتضى الحكمة فى أزمان يعلمها الله ، وقد جعل لـكل زمن من الأحكام ما فيه الصلاح والخير للناس ، ولا صلاح فيما اقترحوه ، وهل من الصلاح أن يرضع المراهق اللبن من ظئره أوأن يجعل له مهد ينام فيه ؟ كذلك لاحكمة فى إنزال الآيات التى اقترحوها ، وهذا إيضاح قوله :

(لـكل أجل كتاب) أى لـكل كتاب أجل أى لكل أمر كتبه الله أجل معين ووقت معلوم ، فلا آية من المقترحات بنازلة قبل أوانها ، ولا عذاب مما خوفوا به بحاصل فى غير وقته ، ولا نبوة بحاصلة فى غير الزمان المقدر لها ، فموسى وعيسى

ومحمد عليهم السلام جاءوا فى أزمنة رأى الله الصلاح فى وجودهم فيها لايتقدمون عنها ولا يتأخرون ، وهكذا انقضاء أعمار الناس ووقوع أعمالهم وآجالهم ، كلها كتبت فى آجال ومدد معينة لاتقديم فيها ولا تأخير ونحو الآية قوله (لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ) .

فما مثل الدنيا من كواكبها وشمسها وأرضها وزرعها إلا مثل مصنع رتبت أعماله ووضعت عماله فى حجر معينة ووزع بينهم العمل على نظم خاصة فى أوقات معينة ولهم مناهج يتبعونها فتراهم كل يوم يعملون وينصرفون من أماكنهم ثم يعودون إليها على نهج لايتغير ولا يتبدل ، فالدنيا قد جعل الله لها نظاما على مقتضى الحقائق الثابتة التى تعلق بها علمه ، وعلى هذا النظام جرت الشمس والقمر والكواكب وظهر النبات والحيوان وتعاقب الموت والحياة ، وظهرت نجوم وفنيت أخرى ونبت زرع وحصد آخر ومات نبى وقام آخر وامتد دين وانتشر وتقلص دين ونسخ .

وكل كوكب من الكواكب التى تصلح للحياة كأرضنا كأنه صحيفة يكتب فيها ويمحى ، وذلك تابع لما فى المنهج الأصلى ، ومن ثم تتعاقب الأمم والأجيال والدول والنظم على قطر كمصر فيتعاقب عليه قدماء المصريين واليونان والرومان ، ولا شك أن كل هذا محو وإثبات على مقتضى المنهج المرسوم ، وهكذا تنسخ آية من القرون ويؤتى بغيرها كما ينسخ زرع بزرع وليل بنهار ، وقوم بقوم ، ودين نبى بآخر فى ميقاته المعين فى علمه تعالى ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(يمحو الله ما يشاء ويثبت) وقد أثر عن أئمة السلف فيها أقوال لاتناقض فيها بل هى داخلة فيما سلف :

(١) قال الحسن : يمحو الله من جاء أجله ويثبت من بقى أجله .

(٢) وقال عِكْرِمة : يمحو الله القمر ويثبت الشمس .

(٣) وقال الربيع : يقبض الله الأرواح حين النوم فيميت من يشاء ويمحوه ويرجع من يشاء فيثبته .

(٤) وقال السدى : يمحو الله القمر ويثبت الشمس .

(٥) وقال آخرون : يمحو الله ما يشاء من الشرائع بالنسخ ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ولا يبدله .

(٦) وقال آخر : يمحو الله المحن والمصايب بالدعاء .

(وعنده أم الكتاب) هو علم الله ، وجميع ما يكتب فى صحف الملائكة لا يقع حيثما يقع إلا موافقا لما يثبت فيه فهو أمّ لذلك فكأنه قيل يمحو مايشاء محوه ويثبت ما يشاء وهو ثابت عنده فى علمه الأزلى الذى لا يكون شىء إلا على وَفْق مافيه .

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلّٰهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) .

شرح المفردات

الأطراف : الجوانب ، المعقب : الذى يكرّ على الشىء فيبطله ، ويقال لصاحب الحق معقب لأنه يقفو غريمه بالاقتضاء والطلب ، والمكر : إرادة المكروه فى خفية ، وعقبى الدار : أى العاقبة الحميدة ، والأم : أصل الشىء وما يجرى مجراه كأم الرأس للدماغ وأم القرى لمكة .

المعنى الجملى

سبق أن ذكر أنهم اقترحوا عليه الآيات استهزاء به وطلبوا استعجال السيئة التى توعدهم بها، وكان صلى الله عليه وسلم يتمنى وقوع بعض ماتوعدوا به ليكون زاجرا

لغيرهم، ذكر هنا لرسوله أن وظيفته التبليغ ولا يهمه ماسينالهم من الجزاء فعلينا حسابهم، وهل هم فى شك من حصول ما توعدناهم به وهم يرون بلادهم تنقص من جوانبها بفتح المسلمين لهـا وقتل أهلها وأسرهم وتشريدهم ، والله يحكم فى خلقه كما يريد وقد حكم للمسلمين بالعز والإقبال ، وعلى أعدائهم بالقهر والإذلال - ثم بين أن قومه ليسوا ببدع فى الأمم فقد مكر من قبلهم بأنبيائهم ولم يكن مكرهم ليضيرهم شيئا فكانت العاقبة للمتقين ، وأهلك الله القوم الظالمين ، وسيعلم الكافرون حين يحل بهم العذاب : لِمَنْ حسن العاقبة ؟ ثم ذكر إنكار اليهود لرسالته وأمره بالجواب عن ذلك بأن الله شهد له بأنه صادق فيها وأيده بالأدلة والحجج وفى شهادته غنى عن شهادة أىّ شاهد آخر ، وكذلك شهد من آمن من أهل الكتاب بأنهم يجدون وصفه فى كتبهم .

الإيضاح

(وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) أى إن نرك أيها الرسول فى حياتك بعض الذى نعد هؤلاء المشركين بالله من العقاب على كفرهم ، أو نتوفاك قبل أن نريك ذلك ، فما عليك إلا تبليغ رسالة ربك لا طلب صلاحهم ولا فسادهم، وعلينا محاسبتهم ومجازاتهم بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر،

ونحو الآية قوله تعالى : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ . فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ . إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ » .

(أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟) أى أشك أولئك المشركون من أهل مكة الذين يسألونك الآيات ، ولم يروا أنا نأتى الأرض فنفتحها لك أرضا بعد أرض ونلحقها بدار الإسلام ونذهب منها أهلها بالقتل والأسر والإجلاء ؟ أليس هذا مقدمة لما أوعدناهم بحصوله ، ونذيرا بما سيحل بهم من النكال والوبال فى الدنيا والآخرة لو تدبروا ، فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ .

ونحو الآية قوله : « أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ؟ » .

(والله يحكم لامعقّب لحكمه) أى والله يحكم وحكمه النافذ الذى لايرد ، ولا يستطيع أحد أن يبطله وقد جرت سنته أن الأرض يستعمرها عباده الصالحون بالعدل فيها والسير على نهج المساواة وترك الظلم ، وقد حكم للمسلمين بالعز والإقبال على ما وضع من السنن العامة ، وعلى أعدائهم بالإدبار وركود ريحهم لما سلكوه من الظلم والفساد فى الأرض .

(وهو سريع الحساب) فعما قريب سيحاسبهم فى الآخرة كفاء ما دنسوا به أنفسهم وران على قلوبهم بارتكاب الآثام بعد أن يعذبهم فى الدنيا بالقتل والأسر ، فلا تستبطئ عقابهم فإنه آت لامحالة ، وكل آت قريب .

ثم بين أن قومه ليسوا ببدع فى الأمم فقد مكر كثير ممن قبلهم بأنبيائهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فقال :

(وقد مكر الذين من قبلهم) أى وقد مكر كثير من كفار الأمم الماضية بأنبيائهم كما فعل نمروذ بإبراهيم وفرعون بموسى واليهود بعيسى ثم دارت الدائرة على الظالمين وأهلك الله المفسدين .

وفى هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتصبير بأن العاقبة لامحالة له .

(فلله المكر جميعا) أى إن مكر الماكرين لايضر إلا بإذنه تعالى ولا يؤثر إلا بتقديره ، فيجب ألا يكون الخوف إلا منه تعالى .

وفى هذا أمان له صلى الله عليه وسلم من مكرهم .

(يعلم ما تكسب كل نفس) فيعصم أولياءه ويعاقب الماكرين بهم ليوفى كل نفس جزاء ما كسبت .

وفى هذا ما لايخفى من شديد الوعيد والتهديد للكافرين الماكرين .

ثم أكد هذا التهديد بقوله :

(وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) أى وسيعلم الكفار إذا قدموا إلى ربهم يوم القيامة حين يدخل الرسول والمؤمنون الجنة ويدخلون النار ، لمن العاقبة المحمودة إذ ذاك وإن جهلوا ذلك من قبل ؟ .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسْقُفٌّ من اليمن فقال له عليه السلام هل تجدنى فى الإنجيل رسولا؟ قال لا فأنزل الله تعالى :

(ويقول الذين كفروا لست مرسلا) أى ويقول الجاحدون لنبوتك ، الكافرون برسالتك ، لست رسولا من عند الله أرسلك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور وتدعوهم إلى عبادة إله واحد لا شريك له وتنقذهم من عبادة الأصنام والأوثان وتصلح حال المجتمع البشرى وتمنع عنه الظلم والفساد .

(قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) أى قل حسبى الله شاهدا بتأييد رسالتى وصدق مقالتى إذ أنزل علىّ هذا الكتاب الذى أعجز البشر قاطبة أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

(ومن عنده علم الكتاب) وهم من أسلم من أهل الكتابين التوراة والإنجيل كعبد الله بن سلام وأضرابه فإنهم يشهدون بنعته فى كتابهم .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : كان من أهل الكتاب قوم يشهدون بالحق ويعرفونه ، منهم عبد الله بن سلاّم والجارود وتميم الدارى وسلمان الفارسى رضى الله عنهم .

خلاصة هذه السورة

ترى مما تقدم فى تفسير هذه السورة أنها اشتملت على الأمور الآتية :

(١) إقامة الأدلة على التوحيد بما يُرى من خلق السموات والأرض والجبال والأنهار والزرع والنبات على اختلاف ألوانه وأشكاله ، وهذا تفصيل لما أجمله فى السورة

قبلها من قوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » .

(٢) إثبات البعث و يوم القيامة ، والتعجب من إنكارهم له .

(٣) استعجالهم العذاب من الرسول صلى الله عليه وسلم ، و بيان أنه واقع بهم لامحالة كما وقع لمن قبلهم من الأمم الغابرة .

(٤) بيان أن للإنسان ملائكة تحفظه وتحرسه وتكتب عليه ما يكتسبه من الحسنات والسيئات بأمر الله .

(٥) ضرب الأمثال لمن يعبد الله وحده ولمن يعبد الأصنام بالسيل والزبد الرابي .

(٦) بيان حال المتقين الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل و يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب وأقاموا الصلاة وأنفقوا فى السر والعلن ، و بيان مآلهم يوم القيامة .

(٧) بيان حال الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه و يفسدون فى الأرض و بيان مآلهم .

(٨) إنكار الشركاء مع إقامة الأدلة على أن لاشريك لله .

(٩) وصف الجنة التى وعد بها المتقون و بيان أنها مآل المتقين ومآل الكافرين النار و بئس القرار .

(١٠) بيان أن كثيرا ممن أسلموا من أهل الكتاب يفرحون بما ينزل من القرآن إذ يرون فيه تصديقا لما بين أيديهم من الكتاب .

(١١) بيان مهمة الرسول وأن خلاصة ما جاء به — عبادة الله وحده ، وعدم الشرك به ، ودعاؤه لجلب النفع ودفع الضر وأن إليه المرجع والمآب .

(١٢) بيان أن كل رسول أرسل بلغة قومه ليسهل عليهم قبول دعوته وفهمها .

(١٣) تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته من قبول دعوة المشركين من بعد ما جاءهم من العلم .

(١٤) إن جميع الرسل صلوات الله عليهم كان لهم أزواج وذرية .

(١٥) إن المعجزات ليست بمشيئة الرسل يفعلونها كلما أرادوا ، وإنما هى بإذن الله وإرادته .

(١٦) بيان أن هذه الحياة الدنيا إنما هى محو وإثبات وموت وحياة فيزيل الله قوما ويوجد آخرين ، وكل ذلك محفوظ فى علم الله الذى لاتغيير فيه ولا تبديل .

(١٧) إن مهمة الرسل إنما هى التبليغ ، أما الجزاء على مخالفة الأوامر فأمر ذلك إلى الله ولا يعنى الرسول أن يحصل فى زمنه أو بعد وفاته .

(١٨) إن انتقام الله من المكذبين قد بدأ فى حياة الرسول بقتل أعدائه وأسرهم وتشريدهم فى البلاد .

(١٩) إن مكر أولئك الكافرين بالرسول ليس ببدع جديد ، فكثير من الأمم السابقة مكروا بأنبيائهم وكان النصر حليف المتقين ونكل الله بالقوم الظالمين .

(٢٠) إلحاف الكافرين فى إنكار رسالته صلى الله عليه وسلم ، مع بيان أن الله شهيد على ذلك بما أقام من الأدلة على صدقه ، وكذلك شهادة من آمن من أهل الكتاب بوجود أمارات رسالته صلى الله عليه وسلم فى كتبهم وتبشيرها بها .

سورة إبراهيم

هى مكية وعدد آياتها ثنتان وخمسون .

وارتباطها بالسورة قبلها من وجوه :

(١) إنه قد ذكر فى السورة السابقة أنه أنزل القرآن حكما عربيا ولم يصرح بحكمة ذلك وصرح بها هنا .

(٢) إنه ذكر فى السورة السالفة قوله : « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ » وهنا ذكر أن الرسل قالوا : « مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ » .

(٣) ذكر هناك أمره عليه السلام بالتوكل على الله ، وهنا حكى عن إخوانه المرسلين أمرهم بالتوكل عليه جل شأنه .

(٤) اشتملت تلك على تمثيل الحق والباطل ، واشتملت هذه على ذلك أيضا .

(٥) ذكر هناك رفع السماء بغير عمد ومد الأرض وتسخير الشمس والقمر ، وذكر هنا نحو ذلك .

(٦) ذكر هناك مكر الكفار وذكر مثله هنا ، وذكر من وصفه مالم يذكر هناك.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ

فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) .

شرح المفردات

الظلمات : الضلالات ، والنور : الهدى ، وإذن ربهم : تيسيره وتوفيقه ، والعزيز: الغالب ، والحميد: المحمود المثنى عليه بحمده لنفسه أزلا و بحمد عباده له أبدا، ويل : هلاك ، يستحبون : يختارون ، سبيل الله : هو دينه الذى ارتضاه ، يبغونها : يطلبون لها ، عوجا : زيغا واعوجاجا ، واللسان : اللغة .

الإيضاح

(الر) تقدم منا أن بينا فى سورتى يونس وهود طريق قراءته والمعنى المراد منه بما أغنى عن إعادته هنا .

(كتاب أنزلناه إليك) أى هذا كتاب أنزلناه إليك أيها الرسول .

(لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) أى لتنقذ الناس من ظلمات الضلالة والكفر إلى نور الإيمان وضيائه ، وتبصر به أهل الجهل والعمى، سبل الرشاد والهدى، بما اشتمل عليه من واضح الآيات البينات المرشدة إلى النظر فى حقائق الكون الدالة على وحدانية الله تعالى وأنه لاشريك له وأن الواجب عبادته وحده ، ثم دعاؤه لجلب النفع وكشف الضر ، وفيها أيضا سعادة البشر وصلاحهم فى الدنيا والآخرة .

(بإذن ربهم) أى بتوفيقه ولطفه بهم ، بإرسال نور الهدى إلى قلوبهم فيسلكون طرق الفلاح والصلاح .

(إلى صراط العزيز الحميد) أى إلى الصراط المستقيم وهو الطريق الذى ارتضاه الله لخلقه وشرعه لهم ، وهو العزيز الذى لايغالب ، المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وأمره ونهيه .

ونحو الآية قوله : « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » الآية ، وقوله : « هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » الآية .

ثم بين ما سلف بقوله :

(الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض) أى هو الله المتصف بملك ما فيهما خلقا وملكا وتصرفا وتدبيرا .

وهذه الجملة الدالة على عظمة خالق الأكوان ، وأنه المنفرد بالعظمة والسلطان ، قد كررت فى كثير من سور الكتاب الكريم للتنبيه إلى أن من أهم مقاصد هذا الدين أن يكون فى المسلمين حكماء ربانيون يتفهمون حقائق هذا الكون ويدركون أسرار بدائعه ، ويستخرجون للناس مافى باطن الأرض وينتفعون بما فى ظاهرها ، ويتأملون فيما فى السموات من بديع الصنع وما تقدمه لنا من الخير العميم الذى ينتفع منه الإنسان والحيوان فى مآكلهما ومشربهما ومسكنهما وسائر حاجاتهما ومرافقهما .

وجاء فى سورة يوسف قوله تعالى توبيخا للغافلين وحثا لهم المستبصرين : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » .

ومع كل هذا قوا أسفا رأينا كثيرا من المسلمين الذين تتلى عليهم هذه الآية صباح مساء ــ يكتفون بمجرد تلاوتها والإيمان بها دون بحث ولا تفهم لمغزاها ولا المراد منها والاستبصار بما تنطوى عليه من المقاصد والمرامى ، ولو كان ذلك كافيا لكان ذكر الخبز حين الجوع كافيا فى الشبع ، والنظر إلى الماء كافيا فى الرّى .

ثم توعد الذين جحدوا آياته وكفروا بوحدانيته فقال :

(وويل للكافرين من عذاب شديد) أى وهلاك بشديد العذاب يوم القيامة لمن كفر بك ولم يستجب دعوتك بإخلاص التوحيد لخالق السموات والأرض ،

وترْك عبادة من لايملك لنفسه شيئا ، بل هو مملوك له تعالى لأنه بعض مافى السموات والأرض .

ثم وصف سبحانه أولئك الكافرين بصفات ثلاث .

(١) (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) أى إن أولئك الكافرين يطلبون الدنيا ويعملون لها ويتمتعون بلذاتها ويقترفون الآثام ويرتكبون الموبقات ويؤثرون ذلك على أعمال الآخرة التى تقربهم إلى الله زلفى وينسون يوما تجازى فيه كل نفس بما عملت ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التى تؤويه ومن فى الأرض جميعا .

(٢) (ويصدون عن سبيل الله) أى ويمنعون من تتجه عزائمهم إلى الإيمان بالله واتباع رسوله فيما جاء به من عند ربه ، أن يؤمنوا به ويتبعوه ، لما زين لهم الشيطان من سلوك سبيل الطغيان ، وران على قلوبهم من الفجور والعصيان ، والبعد عن كل ما يقرب إلى الرحمن .

(٣) (ويبغونها عوجا) أى ويطلبون لها الزيغ والعوج وهى أبعد ما يكون من ذلك ، فيقولون لمن يريدون صدهم وإضلالهم عن سبيل الله ودينه ، إن ذلك الدين تاه عن الصراط المستقيم وزائغ عن الحق واليقين ، وإنك لتسمع كثيرا من الملحدين يقول إن القوانين الإسلامية فى الحدود والجنايات شديدة غاية الشدة وإنما تصلح للأمم العربية فى البادية ، لا للأمم التى أخذت قسطا عظيما من الحضارة : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً » فتلك شريعة دانت لها أمة غيرت وجه البسيطة وملكت ناصية العالم ردحا من الزمان وكانت مضرب الأمثال فى العدل وترك الجور وثلت عروش الأكاسرة والقياصرة وامتلكت بلادهم وأزالت عزهم وسلطانهم ، إلى أن غيّر أهلها معالمها فأركسهم الله بما كسبوا ، فبدّل عزهم ذلا وسعادتهم شقاء ، وتلك سنة الله ، إن الأرض يرثها عباده الصالحون لاستعمارها ، ثم حكم عليهم بما يستحقون فقال :

(أولئك فى ضلال بعيد) أى فهم باختيارهم لأنفسهم حب العاجلة وصدهم عن الدين وابتغائهم له الزيغ والعوج ـ فى ضلال بعيد عن الحق لا يرجى لهم فلاح، وأنّى لهم ذلك وقد كبوا على وجوههم وزين لهم الفساد والغىّ فيرون حسنا ما ليس بالحسن وقبيحا ما ليس بالقبيح ؟ .

ثم بين سبحانه كمال نعمته وإحسانه على عباده فذكر أنه يرسل رسله إلى أقوامهم بلغاتهم كى لا يشق عليهم فهم الدين وحفظه فقال :

(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) أى وما أرسلنا رسولا إلى أمة من الأمم من قبلك وقبل قومك إلا بلغة قومه الذين أرسلناه إليهم ليفهمهم ما أرسل به إليهم من أمره ونهيه بسهولة ويسر، ولتقوم عليهم الحجة وينقطع العذر وقد جاء هذا الكتاب بلغتهم وهو يتلى عليهم ، فأى عذر لهم فى ألا يفقهوه ، وما الذى صدهم عن أن يدرسوه ، ليعلموا ما فيه من حكم وأحكام ، وحلال وحرام ، وإصلاح لنظم المجتمع ليسعدوا فى حياتيهم الدنيا والآخرة ؟ .

والنبى صلى الله عليه وسلم وإن أرسل إلى الناس جميعا ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة ، فإرساله بلسان قومه أولى من إرساله بلسان غيرهم ، لأنهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه لهم حتى يصير مفهوما لهم كما فهموه ، ولو نزل بلغات من أرسل إليهم وبينه لكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف ، وفتحا لباب التنازع ، لأن كل أمة قد تدعى من المعانى فى لسانها ما لا يعرفه غيرها ، وقد يفضى ذلك إلى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوى الباطلة التى يقع فيها المتعصبون .

وبعد أن بين سبحانه أنه لم يكن للناس من عذر فى عدم فهم شرائعه ـ ذكر أن الهداية والإضلال بيد الله ومشيئته فقال :

(فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) أى إن الناس فريقان : فريق هداه الله وأضاء نور قلبه وشرح صدره للإسلام فاتبع سبيل الرشاد؛ وفريق رانت على قلبه

الغواية والضلالة بما اجترح من الآثام ، وأوغل فيه من المعاصى والذنوب ، وذلك كله بتقديره تعالى ومشيئته لا رادّ لقضائه ولا دافع لحكمه .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو العزيز فلا يغلب مشيئته غالب ، الحكيم فى صنعه ، فلا يفعل إلا ما تقتضيه السنن العامة فى خلقه ، والنواميس التى وضعها لصلاح حال عباده وضلالهم : « سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً » .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) .

شرح المفردات

الآيات : هى الآيات التسع التى أجراها الله على يده عليه السلام ، والظلمات : الكفر والجهالات ، والنور : الإيمان بالله وتوحيده وجميع ما أمروا به ، وذكرهم : أى عظهم ، وأيام الله : وقائعه فى الأمم السابقة ويقال فلان عالم بأيام العرب : أى بحروبها وملاحمها كيوم ذى قار ويوم الفجار قال عمرو بن كلثوم :

وأيام لنا غر طوال عصينا المَلْك فيها أن ندينا

والصبار : كثير الصبر ، والشكور : كثير الشكر ، يسومونكم : يكلفونكم ، بلاء: أى ابتلاء واختبار ، وتأذن : أى آذن وأعلم ، وحميد مستوجب للحمد لذاته وإن لم يحمده أحد .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنه أرسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وأن فى هـذا الإرسال نعمة له ولقومه ـ أتبع ذلك بذكر قصص بعض الأنبياء وتفصيل ما لاقوه من أقوامهم من شديد الأذى والتمرد والعناد ، لما فى ذلك من التسلية له وجميل التأسى بهم ، و بيان أن المقصود من بعثة الرسل واحد وهو إخراج الخلق من ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) أى كما أرسلناك أيها الرسول وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، أرسلنا موسى إلى بنى إسرائيل وأيدناه بالآيات التسع التى سلف ذكرها فى سورة الأعراف وأمرناه بأن يدعوهم إلى الإيمان بالله وتوحيده ليخرجوا من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى والإيمان .

(وذكرهم بأيام الله) أى عظهم مرغبا لهم بتذكيرهم بنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل فى الأمم السابقة ليكون فى ذلك حافز لهم على العمل ويكون لهم بمن سلف أسوة ـ ومخوفا : موعدا بتذكيرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل من الأمم الغابرة كعاد وثمود ليكون لهم فى ذلك مزدجر وليحذروا أن يحل بهم مثل ما حل بغيرهم .

وأيام الله فى جانب موسى عليه السلام منها ما كان محنة و بلاء وهى الأيام التى كان فيها بنو إسرائيل تحت قهر فرعون واستعباده ، ومنها ما كانت نعمة كإنجائهم من عدوهم وفلق البحر لهم و إنزاله المنّ والسلوى عليهم .

(إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى إن فى ذلك التنبيه والتذكير لدلائل على وحدانية الله وقدرته لكل صبار فى المحنة والبلية ، شكور فى المنحة والعطية .

قال قتادة : نعم العبد عبد إذا ابتُلِى صبر ، و إذا أُعْطِى شكر ، وفى الحديث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أمر المؤمن كله عجب ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، و إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له » .

وفى هذا إيماء إلى أن الإنسان فى هذه الحياة يجب أن يكون بين صبر وشكر أبدا لأنه إما فى مكروه يصبر عليه و إما فى محبوب يشكر عليه ، والوقت فى هذه الحياة ذهب ، فمتى ضاع من حياتنا زمن دون عمل نسدى فيه خدمة لأنفسنا ولديننا ووطننا فقد كفرنا النعمة وأضعنا الفرصة ولم نعتبر بما حل بمن قبلنا من الأمم الغابرة ، فليحذر كل امرئ أن يضيع حياته بلا عمل وليخف على وقت يضيع ثم بعده عذاب سريع .

ولما سمع موسى أمر ربه امتثله وأخذ يذكر قومه بأيام الله كما حكى الله عنه فقال:

(و إذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب و يذبحون أبناءكم و يستحيون نساءكم) أى اذكر لقومك حين قول موسى لقومه ياقوم تذكروا إنعام الله عليكم إذ أنجاكم من فرعون وآله ، حين كانوا يذيقونكم العذاب و يكلفونكم من الأعمال ما لا يطاق مع القهر والإذلال ، و يذبحون أبناءكم و يبقون نساءكم على قيد الحياة ذليلات مستضعفات ، وهذا رزء من أشد الأرزاء ، وأعظم ألوان البلاء ، قال شاعرهم :

ومن أعظم الرزء فيما أرى بقاء البنات وموت البنينا
وفى ذلك التذكير عبرة لهم لو يعتبرون .

(وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) أى وفيما ذكر ابتلاء واختبار عظيم من ربكم ، لما فيه من نقمة التعذيب والإذلال وقتل الأولاد واستحياء البنات ، ثم نعمة الإنجاء من كل ذلك العسف والقهر ، فالابتلاء كما يكون بالنقمة يكون بالنعمة كما قال « وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » وقال : « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » .

(وإذ تأذن ربكم) أى واذكروا يابنى إسرائيل حين آذنكم ربكم وأعلمكم بوعده فقال :

(لئن شكرتم لأزيدنكم) أى لئن شكرتم ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها بطاعتى فيما آمركم به وأنهاكم عنه لأزيدنكم من نعمى عليكم ، وقد دلت التجارب أن العضو الذى يناط به عمل كلما مرن عليه ازداد قوة ، وإذا عطل عن العمل ضمر وضعف ، وهكذا النعم إن استعملت فيما خلقت له بقيت ، وإن أهملت ذهبت . أخرج البخارى فى تاريخه والضياء فى المختارة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من ألهم خمسة لم يحرم خمسة — وفيها — من ألهم الشكر لم يحرم الزيادة» .

والخلاصة — إن من شكر الله على ما رزقه وسع عليه فى رزقه ، ومن شكره على ما أقدره عليه من طاعته زاد فى طاعته ، ومن شكره على ما أنعم عليه من صحة زاده الله صحة ، إلى نحو أولئك من النعم .

(ولئن كفرتم) النعم وجحدتموها فلم تقوموا بواجب حقها عليكم من شكر المنعم بها .

(إن عذابى لشديد) بحرمانكم منها وسلبكم ثمراتها فى الدنيا والآخرة ، فتعذبون فى الدنيا بزوالها ، وفى الآخرة بعذاب لاقبل لكم به ، وفى الحديث : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

ثم بين سبحانه أن منافع الشكران ومضار الكفران لاتعود إلا إلى الشاكر أو الكافر بتلك النعم ، أما المعبود المشكور فهو متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يضره الكفر فلا جرم قال :

(وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد) أى إن تجحدوا نعمة الله التى أنعمها عليكم ويفعل مثل فعلكم من فى الأرض جميعا فما أضررتم بالكفر إلا أنفسكم ، إذ حرمتموها من مزيد الإنعام وعرضتموها للعذاب الشديد ، وإن الله غنى عن شكركم وشكر غيركم وهو المحمود وإن كفر به من كفر ، وهذا كقوله : « إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ » الآية وقوله : « فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ ، وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ » .

وقد يكون موسى قال هذه المقالة حين عاين منهم دلائل العناد ومخايل الإصرار على الكفر والفساد وتيقن أنه لاينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) .

شرح المفردات

الريبة : اضطراب النفس وعدم اطمئنانها بالأمر ، وفاطر السموات والأرض أى موجدهما على نظام بديع ، والسلطان : الحجة والبرهان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما ذكّر به موسى قومه مما أولاهم به ربهم من نعمة ورفع عنهم من نقمة ، ثم ذكر وعده تعالى بالزيادة لمن شكر ووعيده بالعذاب لمن كفر ، ثم حذرهم بأن الكفران لايضير ربهم وأنه غنى عن حمدهم وحمد من فى الأرض جميعا ـ أخذ يذكرهم بأيام الله فيمن قبلهم من الأمم السالفة والأجيال البائدة بأسلوب طلىّ ومقال جلىّ ، فذكر القول أوّلا على سبيل الإجمال ، ثم أتبعه بمحاورة بين الرسل وأقوامهم ، أقام فيها الرسل الحجة على أممهم ودحض ما تمسكوا به من الترّهات والأباطيل .

الإيضاح

(ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله) أى ألم يأتكم خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل التى غاب عن الناس علمها وعند الله إحصاؤها .

ثم فصل هذا النبأ وفسره بقوله :

(جاءتهم رسلهم بالبينات) أى جاءتهم رسلهم بالمعجزات الظاهرة والبينات

الباهرة ، وبين كل رسول لأمته طريق الحق ودعاهم إليه ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

(فردوا أيديهم فى أفواههم) أى عضوا بنان الندم غيظا لما جاءهم به الرسل ، وضجرا لنفرتهم من استماع كلامهم إذ سفهوا أحلامهم وشتموا أصنامهم ، وقد فعلت العرب مثل ذلك مع النبى صلى الله عليه وسلم كما قال سبحانه : « عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ » .

وقال أبو عبيدة والأخفش ونعمّا قالا هو مثل والمراد أنهم لم يؤمنوا ولم يجيبوا ، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت ، قد رد يده فى فيه .

(وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به) أى إنا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به من البينات التى أظهرتموها حجة على صحة رسالتكم ، وإنما يقصدون من الكفر بها الكفر بدلالتها على صدق رسالتهم .

(وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب) أى وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله ووحدانيته ، وجملة ما جئتم به من الشرائع .

وخلاصة مقالهم — إنهم جاحدون نبوتهم قاطعون بعدم صحتها ، لأن ما جاءوا به من التعاليم والشرائع مما يشك فى صدقه وأن الله سبحانه يدعو إلى مثله . فرد الرسل عليهم منكرين متعجبين من تلك المقالة الحمقاء كما أشار إلى ذلك بقوله :

(قالت رسلهم أفى الله شك ؟) أى أفى وجود الله شك ، وكيف ذلك والفطرة شاهدة بوجوده ، ومجبولة على الإقرار به ، فالاعتراف به ضرورى لدى كل ذى رأى حصيف كما جاء فى الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه » .

ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب فتحتاج إلى النظر فى الأدلة الموصلة ، إلى ذلك ومن ثم وجه الرسل أنظار أممهم إلى هذه الأدلة فقالوا :

(فاطر السموات والأرض) أى هو الذى خلقهما وأبدعهما على غير مثال سابق

ودلائل الحدوث ظاهرة عليهما فلا بد لهما من صانع وهو الله الذى لا إله إلا هو خالق كل شىء وإلهه ومليكه ، وقد جاء هـذا الوصف فى محاورات الأنبياء جميعا ، وهو نفس الوصف الذى جاء فى أول السورة على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومن هذا يعلم أن كل نبى جعل مطمح نظره توجه النفوس إلى علوم السموات والأرض.

ولمـا أقاموا الدليل على وجوده وصفوه بكمال الرحمة بقولهم :

(يدعوكم) إلى الإيمان به بوساطة إرساله إيانا لنخرجكم من ظلمات الوثنية إلى نور الوحدانية و إخلاص العبادة للواحد القهار .

(ليغفر لـكم من ذنوبكم) أى يدعوكم لمغفرة بعض ذنوبكم وهى الذنوب التى بينكم و بين ربكم لا المظالم وحقوق العباد .

والمتتبع لأسلوب الـكتاب الـكريم يرى أن كل موضع ذكر فيه مغفرة الذنوب للـكافرين جاء بلفظ (من) كقوله : «وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ . يَغْفِرْ لَـكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ» وقوله : « يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَـكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » لأنه يخاطبهم فى أمر الإيمان وحده .

وفى المواضع التى يذكر فيها مغفرة الذنوب للمؤمنين تجىء بدون ذكر (مِن) كقوله : « ذَٰلِـكُمْ خَيْرٌ لَـكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَـكُمْ ذُنُوبَكُمْ » لأن المغفرة منصرفة إلى المعاصى ومتوجهة إليها .

(ويؤخركم إلى أجل مسمى) أى إلى وقت سماه الله وجعله منتهى أعماركم إن أنتم آمنتم به ، وإلا عاجلـكم بالهلاك وعذاب الاستئصال جزاء كفرانكم بدعوة الرسل إلى التوحيد و إخلاص العبادة للواحد القهار .

ثم حكى الله تعالى رد الأمم على مقالة الرسل ، وهو يتضمن ثلاثة أشياء :

(١) (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا) فلا فضل لـكم علينا ، فلم خصصتم بالنبوة وأطلعكم الله على الغيب وجعلـكم مخالطين لزمرة الملائكة دوننا ، إلى أنه لو كان الأمر

كما تدّعون لوجب أن تفارقونا فى الحاجة إلى الأكل والشرب وقربان النساء وما شاكل ذلك .

(٢) (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) ولا حجة لكم على ما تدعون وليس من حصافة العقل أن نترك أمرا قبل أن يقوم الدليل على خطئه .

(٣) (فأتونا بسلطان مبين) أى بحجة ظاهرة تدل على صحة ما تدّعون من النبوة ، أما ذكر السموات والأرض وعجائبهما فلسنا نحفل بهما ، والعجائب الأرضية والسماوية لا نعقلها ، والبشر لا يخضعون إلا لمن يأتى لهم بما هو خارج عن طور معتادهم وحينئذ يعظمونه ويبجلونه ، وهذه المشاهدات لا نرى فيها شيئا خارقا للعادة ، وإذا فلا إيمان ولا تسليم إلا بما هو فوق طاقتنا كقلب العصا حية ونقل الجبال وما إلى ذلك .

وبعد أن حكى عن الكفار شبهاتهم فى الطعن فى النبوة حكى عن الأنبياء جوابهم عنها فأجابوا عن الأولى والثانية بالتسليم لكن التماثل لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة لأن هذا منصب يمن الله به على من يشاء من عباده ، كما لا يمتنع من أن يخص بعض عباده بالتمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب وأن يحرم الجمع العظيم منه ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) وأجابوا عن الشبهة الثالثة بأن ما جئنا به حجة قاطعة وبينة ظاهرة على صدق رسالتنا وما اقترحتموه من الآيات فأمره إلى الله إن شاء أظهره وهو زائد على قدر الكفاية ، وذلك ما أومئوا إليه بقولهم :

(وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله) أى بمشيئته وإرادته ، وليس ذلك فى قدرتنا .

وبعد أن أجابهم الأنبياء عن شبهاتهم أخذ المشركون يخوفونهم ويتوعدونهم بالانتقام منهم وإيذائهم قدر ما يستطيعون ، فقال لهم الأنبياء إنا لا نخاف تهديدكم

ولا وعيدكم ، بل نتوكل على الله ونعتمد عليه ولا نقيم لما تقولون وزنا ولا نأبه به ، وهذا ما أشار إليه سبحانه بقوله حكاية عنهم :

(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فى دفع شرور أعدائهم عنهم وفى الصبر على معاداتهم .

ثم زادوا أمر التوكل توثيقا وتوكيدا فقالوا :

(وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا) أى وكيف لا نتوكل على الله وقد هدانا إلى سبل المعرفة وأوجب علينا سلوك طريقها وأرشدنا إلى طريق النجاة ، ومن أنعم الله عليه بنعمة فليشكره عليها بالعمل بها .

(ولنصبرنّ على ما آذيتمونا) أى ولنصبرنّ على إيذائكم بالعناد واقتراح الآيات ونحو ذلك مما لا خير فيه وندعوكم لعبادة الله وحده ليكون ذلك منا شكرا على نعمة الهداية .

ثم ختموا كلامهم بمدح التوكل وبيان أن إيذاءهم لا يثنيهم عن تبليغ رسالة ربهم فقالوا :

(وعلى الله فليتوكل المتوكلون) أى وعلى الله وحده فليثبت المتوكلون على توكلهم وليحتملوا كل أذى فى جهادهم ولا يبالوا بما يصيبهم من أذى ولا بما يلاقون من صعاب وعقبات .

ومن عنده مال أو علم فلينفع به الناس وليكن كالنهر يسقى الزرع والشمس تضىء العباد وليصبر على أذى الناس كما صبر الأنبياء وأوذوا ، فالهداة ما خلقوا إلا ليعملوا فهم هداة بطباعهم ، ولذاتهم فى قلوبهم ومنهم تنتقل إلى الناس .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ

الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ(١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ(١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ(١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) .

شرح المفردات

لتعودنّ : لتصيرن ، والملة : الدين والشريعة ، والمقام : موقف الحساب ، واستفتحوا : أى طلبوا الفتح بالنصرة على الأعداء ، وخاب : هلك ، والجبار : العاتى المتكبر على طاعة الله ، والعنيد : المعاند للحق المخالف له ، ومن ورائه : أى من بعد ذلك ينتظره ، والصديد : ما يسيل من جلود أهل النار ، يسيغه : أى يستطيبه يقال ساغ الشراب : إذا جاز الحلق بسهولة ، يأتيه الموت : أى تأتيه أسبابه وتحيط به من كل جهة ، عذاب غليظ : أى شديد غير منقطع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما دار من الحوار والجدل بين الرسل وأقوامهم وذكر الحجج التى أدلى بها الرسل وقد كان فيها المقنع لمن أراد الله له الهداية والتوفيق ، ومن كان له قلب يعى به الحكمة وفصل الخطاب ـ ذكر هنا أنهم بعد أن أفحموا لم يجدوا وسيلة إلا استعمال القوة مع أنبيائهم كما هو دأب المحجوج المغلوب فى الخصومة ، فخيروا رسلهم بين أحد أمرين : إما الخروج من الديار ، وإما العودة إلى الملة التى عليها الآباء والأجداد ، فأوحى الله إلى أنبيائه أن العاقبة لكم وستدور عليهم الدائرة ، وستحلون محلهم فى ديارهم وسيعذبون فى الآخرة بنار جهنم ويرون ألوانا من العذاب لاقبل لهم بها .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا) أى وقال الذين كفروا بالله لرسلهم حين دعوهم إلى توحيده تعالى وترك عبادة الأصنام والأوثان لنخرجنكم من بلادنا مطرودين منها إلا أن تعودوا فى ديننا الذى نحن عليه من عبادة الأصنام كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به : « لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا» الآية ، وكما قال قوم لوط : « أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ» الآية ، وقال إخبارا عن مشركى قريش : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا » .

وخلاصة هذا — ليكونن أحد الأمرين لا محالة : إما إخراجكم ، وإما صيرورتكم فى ملتنا ملة الآباء والأجداد وهى عبادة الآلهة والأوثان ، وقد مكن لهم فى ذلك أنهم كانوا كثرة وكان أهل الحق قلة كما جرت بذلك العادة فى كل زمان ومكان ، فإن الظلمة يكونون متعاونين متعاضدين ، ومن ثم استطاعوا أن يبرموا هذا الحكم بلا هوادة ولا رفق كما هو شأن المعتز بقوته الذى لا يخشى اعتراضا ولا خلافا .

والأنبياء صلوات الله عليهم لم يكونوا فى ملتهم ولم يعبدوا الأصنام طيلة حياتهم لكنهم لما نشئوا بين ظهرانيهم وكانوا من أهل تلك البلاد ولم يظهروا فى أول أمرهم مخالفة لهم — ظنوا أنهم كانوا على دينهم .

ولما تمادت الأمم فى الكفر وتوعدوا الرسل بأخذهم بالشدة والإيقاع بهم — أوحى الله إليهم بإهلاك من كفر بهم ووعدهم بالنصر والغلب على أعدائهم كما أشار إلى ذلك بقوله : (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم) أى فأوحى الله إلى رسله قائلا لهم : لنهلكن من تناهى فى الظلم من المشركين ، ولنسكننكم أرضهم وديارهم بعد إهلاكهم عقوبة لهم على قولهم : (لنخرجنكم من أرضنا) .

وفى ذلك وعيد وتهديد للمشركين من قريش على كفرهم وجراءتهم على نبيه ، وتثبيت وأمر له بالصبر على مايلقى من المكروه كما صبر من كان قبله من الرسل ، وبيان لأن عاقبة من كفر به الهلاك وعاقبته النصر عليهم كما قال : « سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ » وقال : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » وقال : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » .

ثم ذكر السبب فى نصرهم عليهم فقال :

(ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) أى هكذا أفعل بمن خاف مقامه بين يدىّ يوم القيامة ، وخاف وعيدى فاتقانى بطاعتى وتجنب سخطى ــ أنصره على من أراد به سوءا وبغى به مكروها من أعدائى ، وأورثه أرضه ودياره .

ثم بين أن كلا من الفريقين الأمم والرسل طلبوا المعونة والتأييد من ربهم وإلى ذلك أشار بقوله :

(واستفتحوا) أى واستفتحت الرسل على أممها أى استنصرت الله عليها ، واستفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

ثم ذكر مآل المشركين وبين أن النصر للمتقين فقال :

(وخاب كل جبار عنيد) أى وهلك كل متكبر مجانب للحق منحرف عنه .

(من ورائه جهنم) أى ومن وراء الجبار العنيد جهنم أى هى له بالمرصاد تنتظره ليسكنها مخلدا فيها أبدا ويُعرض عليها فى الدنيا غدوّا وعشيا إلى يوم التناد .

ثم بين شرابه فيها فقال :

(ويسقى من ماء صديد) أى ليس له فى النار شراب إلا ما يخرج من جوفه وقد خالطه القيح والدم ، وخص بالذكر لأنه آلم أنواع العذاب .

ثم ذكر ألمه من ذلك الشراب فقال :

(يتجرعه ولا يكاد يسيغه) أى يتحساه جرعة بعد جرعة ولا يكاد يزدرده من شدة كراهته ورداءة طعمه ولونه وريحه وحرارته كما قال : « وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » وقال : « وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ » .

ثم ذكر ما يحيط به من الأهوال فقال :

(ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) أى وتحيط به أسبابه من الشدائد وأنواع العذاب من كل جهة من الجهات من قدامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله فى نار جهنم ، ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت ، لكنه لا يموت كما قال تعالى : « لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » .

ثم أكد شدائدها وعظيم أهوالها فقال :

(ومن ورائه عذاب غليظ) أى وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أى مؤلم أغلظ من الذى قبله وأمر كما قال تعالى: «وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ. مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ. فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ. لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ» وقال : «وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ . وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » .

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما سيلاقيه الكافرون فى هذا اليوم العصيب من سائر أنواع العذاب التى سلف وصفها ــ بين هنا أن ما عملوه فى الدنيا من صالح الأعمال لايجديهم فتيلا ولا قطميرا ، فما أشبهه إذ ذاك برماد أطارته الريح فى يوم عاصف فذهبت به فى كل ناحية ، فهم لايجدون من أعمالهم فيه شيئا ، ثم بين أن ذلك اليوم آت لاريب فيه ، فإن من أنشأ السموات والأرض بلا معين ولا ظهير قادر على أن يفنيهم ويأتى بخلق سواهم ، وليس ذلك بعزيز ولا بممتنع عليه .

الإيضاح

(مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف) أى ما مثل أعمال الكافرين التى كانوا يعملونها فى الدنيا ويزعمون أنها تنفعهم يوم الجزاء ــ إلا كمثل رماد حملته الريح وأسرعت الذهاب به فى يوم عاصف فنسفته ولم تبق له أثرا ، فهم يوم القيامة لايجدون منها شيئا ينفعهم عند الله فينجيهم من عذابه ، إذ لم يكونوا يعملونها لله خالصة ، بل كانوا يشركون فيها الأصنام والأوثان .

والمراد من تلك الأعمال أعمال البر كالصدقة ، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ، وإطعام الجائع ، وإغاثة الملهوف ، ونحو ذلك .

ثم أكد نفى فائدتها لهم إذ ذاك فقال :

(لايقدرون مما كسبوا على شىء) أى لايقدرون يوم القيامة على شىء من أعمالهم فى الدنيا ، فلا يرون لها أثرا من ثواب أو تخفيف عذاب ، كما لاينتفع بالرماد إذا أرسل عليه الريح فى يوم عاصف .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا »

وقال: «مَثَلُ مَايُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدنيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ، وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » وورد فى الصحيح عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت «يارسول الله إن ابن جُدْعان كان فى الجاهلية يصل الرحم و يطعم المسكين ، هل ذلك نافعه ؟ قال لاينفعه لأنه لم يقل : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » .

(ذلك هو الضلال البعيد) أى ذلك السعى والعمل على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم منه أحوج ما كانوا إليه ، هو الضلال البعيد عن طريق الحق والصواب .

ثم ذكر دليل وحدانيته فقال :

(ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز) أى ألم تعلم أيها الرسول أن الله أنشأ السموات والأرض بالحكمة وعلى الوجه الصحيح الذى يحق أن يخلقا عليه ، ومن قدر على خلقهما على أتم نظام وأحكم وضع بلا معين ولا ظهير ، فهو قادر على أن يفنيكم و يأتى بخلق جديد سواكم ، وما ذلك بممتنع ولا متعذر عليه .

ومثل الآية قوله : « أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

وخلاصة ذلك — إنهم بعدوا فى الضلال وأمعنوا فى الكفر بالله مع وضوح الآيات الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة ، وأنه هو الحقيق بأن يرجى ثوابه و يخشى عقابه .

وَبَرَزُوا لِلهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ

لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ
وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا
تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي
كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)
وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) .

شرح المفردات

وبرزوا : أى صاروا بالبراز وهى الأرض المتسعة، ويراد بها مجتمع الناس فى ذلك اليوم ، والضعفاء : واحدهم ضعيف ، ويراد به ضعيف الرأى والفكر ، والذين استكبروا: هم رؤساؤهم الذين استنفروهم، والتبع : واحدهم تابع كخادم وخدم ، مغنون: أى دافعون ، ومحيص : أى منجى ومهرب ، والسلطان : التسلط ، بمصرخكم : أى بمغيثكم ، يقال استصرخنى فأصرخته : أى استغاثنى فأغثته .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما يلقاه الأشقياء فى ذلك اليوم من العذاب ، وذكر أن أعمالهم الطيبة التى كانت فى الدنيا أُحبطت فلم تغن عنهم شيئا — ذكر هنا محاورة بين الأتباع المستضعفين والرؤساء المتبوعين وما يحدث فى ذلك الوقت من الخجل لهم ، ثم أردفها بمناظرة وقعت بين الشيطان وأتباعه من الإنس ، وبعد أن ذكر أحوال الأشقياء وبالغ فى بيانها وتفصيلها شرح أحوال السعداء وما أعد لهم من الثواب العظيم والأجر الجزيل .

الإيضاح

(وبرزوا لله جميعا) أى برزت الخلائق كلها برُّها وفاجرها لله الواحد القهار: أى اجتمعت فى براز من الأرض ، وهو المكان الذى ليس فيه شىء يستر أحدا .

(فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا) أى فقال الأتباع لقادتهم وسادتهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده وعن اتباع قول الرسل : إنا كنا تابعين لكم تأمروننا فنأتمر وتنهوننا فننتهى .

(فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء) أى فهل تدفعون عنا اليوم شيئا من ذلك العذاب كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فى الدنيا .

وقد حكى الله رد أولئك السادة عليهم .

(قالوا لو هدانا الله لهديناكم) أى لو أرشدنا الله تعالى وأضاء أنوار بصائرنا وأفاض علينا من توفيقه ومعونته لأرشدناكم ودعوناكم إلى سبل الهدى ووجهنا أنظاركم إلى طرق الخير والفلاح ، ولكنه لم يهدنا فضللنا السبيل فأضللناكم .

ولما كان هذا القول منهم أمارة الجزع قالوا :

(سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص) أى ليس لنا مهرب ولا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا أو جزعنا .

وخلاصة ذلك — سيان الجزع والصبر فلا نجاة من عذاب الله .

وفى مثل الآية قوله : « وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ » وقوله : « رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً » .

ولما ذكر سبحانه المناظرة التى ستكون بين الأتباع والرؤساء أردفها بالمناظرة التى ستكون بين الشيطان وأتباعه حينئذ فقال :

(وقال الشيطان لما قضى الأمر) أى وقال إبليس مخاطبا أتباعه من الإنس ، بعد أن حكم الله بين عباده فأدخل المؤمنين فراديس الجنات ، وأسكن الكافرين سحيق الدركات .

(إن الله وعدكم وعد الحق) أى إن الله وعدكم على ألسنة رسله بالبعث وجزاء كل عامل على عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، ووعده حق وخبره صدق .

(ووعدتكم فأخلفتكم) أى ووعدتكم أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب ، ولئن كانا فنعم الشفيع لكم الأصنام والأوثان، فأخلفتكم موعدى إذ لم أقل إلا بَهْرَجا من القول وباطلا منه فاتبعتمونى وتركتم وعد ربكم وهو وليكم ومالك أمركم .

ونحو الآية قوله : « يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا » .

(وما كان لى عليكم من سلطان) أى وما كان لى قوة وتسلط تجعلنى ألجئكم إلى متابعتى على الكفر والمعاصى .

(إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) أى ولكن بمجرد أن دعوتكم إلى الضلال بوسوستى وتزيينى ، أسرعتم إلى إجابتى واتبعتم شهوات النفوس وأطعتم الهوى وخضتم فى مسالك الردى .

(فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) لأنه ما كان منى إلا الدعاء وإلقاء الوسوسة ، ولوموا أنفسكم إذ استجبتم لى باختياركم الذى نشأ عن سوء استعدادكم بلا حجة منى ولا برهان بل بتزيينى وتسويلى ، ولم تستجيبوا لربكم وقد دعاكم دعوة الحق المقرونة بالحجج والبينات .

ثم حكى سبحانه قول الشيطان حين ذاك لأتباعه فقال :

(ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ) أى ما أنا بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب فأزيل صراخكم ، وما أنتم بمغيثىّ مما أنا فيه من العذاب والنكال .

(إنى كفرت بما أشركتمون من قبل) أى إنى جحدت اليوم أن أكون شريكا لله فيما أشركتمونى فيه من قبل هذا اليوم أى فى الدنيا ، وهذا كقوله : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ » .

ومعنى كفره بإشراكهم تبرؤه منه واستنكاره له ، وهذا كقوله تعالى : « إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ » .

(إن الظالمين لهم عذاب أليم) أى قال إبليس قطعا لأطماع الكفار من الإغاثة والنجاة من العذاب ، وإنما حكى الله ذلك عنه ليكون تنبيها للسامعين وحضا لهم على النظر فى عاقبة أمرهم والاستعداد لذلك اليوم الذى يقول فيه الشيطان ما يقول ، فيثوبوا إلى رشدهم ويرجعوا عن غيهم ويتذكروا هول ذلك الموقف ورهبته .

ولما جمع سبحانه فريقى السعداء والأشقياء فى قوله : « وَبَرَزُوا لِلهِ جَمِيعًا » وبالغ فى وصف حال الأشقياء من وجوه كثيرة ـ ذكر حال السعداء وما أعد لهم من نعيم مقيم فى ذلك اليوم فقال :

(وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى وأدخل الذين صدقوا الله ورسوله فأقروا بوحدانيته تعالى ورسالة رسله ، وعملوا بطاعته فانتهوا إلى أمره ونهيه ، بساتين تجرى من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبدا لا يتحولون عنها ولا يزولون منها .

(بإذن ربهم) أى بتوفيقه تعالى ، إذ وجه نفوسهم فى الدنيا لكسب الخيرات والميل إلى العمل بما يرضيه ويرضى رسوله ، وأنار بصائرهم للاعتقاد بأن يوم الجزاء آت لا ريب فيه ، فأعدوا له العُدّة ، فكان على الله بمقتضى وعده أن يدخلهم جناته كفاء ما جدّوا فى رضاه ونصبوا فى طاعته خوفا من هول ذلك اليوم العصيب .

(تحيتهم فيها سلام) أى يحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم تعظيما لشأنهم وعناية بأمرهم ، وجاء فى هذا المعنى قوله تعالى فى وصف دخولهم الجنة « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » وقوله : « وَالْمَلَائِكَةُ

يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» وقوله: «وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا» كما يحييهم ربهم جلت قدرته إظهارا لرضاه عنهم وإجلالا وإكبارا لهم كما قال: «سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ».

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧).

شرح المفردات

المثل: قول فى شىء يشبه بقول فى شىء آخر لما بينهما من المشابهة ويوضح الأول بالثانى ليتم انكشاف حاله به، ثابت: أى ضارب بعروقه فى الأرض، فى السماء: أى جهة العلو، تؤتى أكلها: أى تعطى ثمرها، بإذن ربها: أى بإرادة خالقها، اجتثت: أى استؤصلت وأخذت جثتها، والقرار: الاستقرار، القول الثابت: أى الذى ثبت عندهم وتمكن فى قلوبهم.

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حال الأشقياء ومآل أمرهم وما يلاقونه من الشدائد والأهوال فى نار جهنم التى لا يجدون عنها محيصا وذكر أحوال السعداء وما ينالون من فوز عند ربهم — ضرب لذلك مثلا يبين حال الفريقين ويوضح الفرق بين الفئتين، وبه ألبس

المعنويات لباس الحسيات ليكون أوقع فى النفس وأتم لدى العقل ، والأمثال لدى العرب هى المهيع المسلوك والطريق المتبع لإيضاح المعانى إذا أريد تثبيتها لدى السامعين والقرآن الكريم ملئ بها والسنة النبوية جرت على منهاجه ، فكثيرا ما تتبع المسائل الهامة بضرب الأمثال لها لتستقر فى النفوس وتنقش فى الصدور .

الإيضاح

(ألم تر كيف ضرب الله مثلا) أى ألم تعلم أيها الإنسان علم اليقين ، كيف ضرب الله مثلا ووضعه الموضع اللائق به .

(كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها) أى إن الله جلت قدرته شبه الكلمة الطيبة وهى الإيمان الثابت فى قلب المؤمن الذى يُرفع به عمله إلى السماء كما قال : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » وتُنال بركته وثوابه فى كل وقت ، فالمؤمن كلما قال لا إله إلا الله صعدت إلى السماء وجاءت بركتها وخيرها — بالشجرة الطيبة المثمرة الجميلة المنظر الشذيّة الرائحة التى لها أصل راسخ فى الأرض به يؤمن قلعها وزوالها ، وفروعها متصاعدة فى الهواء (فيكون ذلك دليلا على ثبات الأصل ورسوخ العروق ، وعلى بعدها عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية) فتأتى الثمرة نقية خالية من جميع الشوائب وتثمر فى كل حين بأمر ربها وإذنه ، وإذا اجتمع لهذه الشجرة كل هذه المميزات كثر رغبة الناس فيها .

وخلاصة ذلك — إنه تعالى شبه كلمة الحكمة والإيمان بشجرة ثبتت عروقها فى الأرض وعلت أغصانها إلى السماء وهى ذات ثمر فى كل حين ، ذاك أن الهداية إذا حلت قلبا فاضت منه على غيره وملأت قلوبا كثيرة ، فكأنها شجرة أثمرت كل حين ، لأن ثمراتها دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وكل قلب يتلقى عما يشا كله ويأخذ منه بسرعة أشد من سرعة إيقاد النار فى الهشيم أو سريان الكهرباء فى المعادن أو الضوء فى الأثير .

وقد روى عن ابن عباس أن الكلمة الطيبة هى قول « لا إله إلا الله » وأن الشجرة الطيبة : هى النخلة ، وعن ابن عمر قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أخبرونى عن شجرة تشبه الرجل المسلم لايتحاتّ ورقها لاصيفا ولا شتاء وتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، قال ابن عمر فوقع فى نفسى أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لايتكلمان ، فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : النخلة . فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه والله لقد كان وقع فى نفسى أنها النخلة ، قال ما منعك أن تتكلم ؟ قلت لم أركم تتكلمون ، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا ، قال عمر: لأن تكون قلتها أحبّ إلىّ من كذا وكذا» رواه البخارى.

ثم نبه سبحانه إلى عظم هذا المثل ليكون ذلك داعية تدبره ومعرفة المراد منه فقال:

(ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) أى إن فى ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكيرا للناس ، لأن أنس النفوس بها أكثر، فهى تخرج المعنى من خفىّ إلى جلىّ ، ومما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، وبها يطبق المعقول على المحسوس فيحصل العلم التام بالشىء الممثل له .

(ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار) أى ومثل كلمة الكفر وما شاكلها مثل شجرة خبيثة كالحنظل ونحوه مما ليس له أصل ثابت فى الأرض ، بل عروقه لاتتجاوز سطحها ، وقد اقتلعت من فوق الأرض ، لأن عروقها قريبة منه ، أو لاعروق لها فى الأرض ، فكما أن هذه لاثبات لها ولا دوام ، فكذلك الباطل لايدوم ولا يثبت بل هو زائل ذاهب ، وثمره مرّ كريه كالحنظل .

وما أقوى الحق وأثبته وأكثر نفعه للناس ، فهو ثابت الدعائم متين الأركان مثمر كل حين كالنخل .

والخلاصة — إن أرباب النفوس العالية وكبار المفكرين هم أصحاب الكلمة الطيبة ، وعلومهم تعطى أممهم نعما ورزقا فى الدنيا ، وهى مستقرة فى نفوسهم ،

وفروعها ممتدة إلى العوالم العلوية والسفلية، وتثمر كل حين لأبناء أمتهم ولغيرهم فيهتدى بها المؤمنون ، وما أشبههم بالنخلة التى لها أصل مستقر وفروع عالية وثمر دائم ويأكل الناس منها صيفا وشتاء :

وأرباب الشهوات والنفوس الضعيفة والمقلدون فى العلم هم أصحاب الكلمة الخبيثة التى لاثبات لها كالحنظل .

وبعد أن وصف الكلمة الطيبة بما سلف أخبر بفوز أصحابها ببغيتهم فى الدنيا والآخرة فقال :

(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) أى يثبتهم بالكلمة الطيبة التى ذكرت صفاتها العجيبة فيما سلف مدة حياتهم ، إذا وجد من يفتنهم عن دينهم ويحاول زللهم كما جرى لبلال وغيره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد الموت فى القبر الذى هو أول منزل من منازل الآخرة ، وفى مواقف القيامة فلا يتلعثمون ولا يضطربون إذا سئلوا عن معتقدهم ولا تدهشهم الأهوال .

أخرج ابن أبى شيبة عن البراء بن عازب أنه قال فى الآية : التثبيت فى الحياة الدنيا إذا جاء الملكان إلى الرجل فى القبر فقالا له من ربك ؟ قال ربى الله، وقالا وما دينك ؟ قال دينى الإسلام ، وقالا وما نبيك ؟ قال نبيى محمد صلى الله عليه وسلم ،

وعن عثمان بن عفان قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل » أخرجه أبو داود .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى سؤال الملائكة للميت فى قبره وفى جوابه عليهم وفى عذاب القبر وفتنته وليس هذا موضعها . نسأل الله التثبيت فى القبر وحسن الجواب بمنه وكرمه إنه على ما يشاء قدير .

وعلى هذا فالمراد بالحياة الدنيا مدة الحياة ، والآخرة يوم القيامة والعرض للحساب.

وبعد أن وصف الكلمة الخبيثة فى الآية المتقدمة بين حال أصحابها بقوله :

(ويضل الله الظالمين) أى ويخلق فيهم الضلال عن الحق الذى ثبت المؤمنين عليه على حسب إرادتهم واختيارهم لسوء استعدادهم وميلهم مع شهوات النفوس وتدسيتها بصنوف الشرور والمعاصى ، سنة الله فى عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا .

والمراد بالظالمين هنا الكفار لأنهم ظلموا أنفسهم بتبديلهم فطرة الله التى فطر الناس عليها وعدم اهتدائهم إلى القول الثابت .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن الكافر إذا حضره الموت تنزل عليه الملائكة عليهم السلام يضربون وجهه ودبره ، فإذا دخل قبره أقعد فقيل له من ربك ؟ لم يرجع إليهم شيئا وأنساه الله تعالى ذكر ذلك ، وإذا قيل له من الرسول الذى بعث إليك ؟ لم يهتد له ولم يرجع إليه شيئا ، فذلك قوله تعالى : (ويضل الله الظالمين) » .

(ويفعل الله ما يشاء) أى وبيده تعالى الهداية والإضلال على حسب ما تقتضيه سننه العامة التى سنها فى عباده ، وعلى حسب استعداد النفوس وقبولها لكل منهما ، فلا تنكروا قدرته على اهتداء من كان ضالا ولا ضلال من كان منكم مهتديا ، فإن بيده تصريف خلقه وتقليب قلوبهم يفعل فيهم ما يشاء .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) .

شرح المفردات

البوار : الهلاك يقال رجل بائر وقوم بُورٌ كما قال : « وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » ويصلونها : يقاسون حرها ، والأنداد : واحدهم ندّ وهو المثل والشبيه ، والمصير : المرجع ، والبيع : الفدية ، والخلال : المخالّة والصداقة .

المعنى الجملى

بعد أن ضرب عز اسمه الأمثال بيانا لحالى الفريقين ، وذكر مايلهمه من التوفيق فى الدارين للسعداء ، ومايناله الأشقياء من الخذلان والإضلال، جزاء ما كسبت أيديهم من تدسيتهم لأنفسهم باجتراحهم للشرور والآثام ، وبين أن كل ذلك يفعله على حسب ما يرى من الحكمة والمصلحة .

ذكر هنا الأسباب التى أوصلتهم إلى سوء العاقبة معجّبا رسوله مما صنعوا من الأباطيل التى لاتكاد تصدر ممن له حظ من الفكر والنظر ، ولم تكن هذه الطامة خصّيصَى بهم ، بل كانت فتنة شعواء عمّتهم جميعا : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

ذلك أنهم بدلوا النعمة كفرا والشكر جحدا و إنكارا ، وليت البلية كانت واحدة بل أضافوا إليها أخرى فاتخذوا لله الأنداد والشركاء ، ثم ثلثوا بإضلال غيرهم فكانوا دعاة الكفر وأعوان الفتنة :

فلو كان همّ واحد لاحتملته ولكنه هم وثان وثالث

ومن ثم كانت عاقبتهم التى لامرد لها العذاب الأليم فى جهنم و بئس المصير ؛ ثم بين لرسوله أن مثل هؤلاء لاتجدى فيهم العظة ، فذرهم يتمتعوا فى هذه الحياة حتى حين ، ثم لابد لهم من النصيب المحتوم .

و بعد أن أمر الكافرين على سبيل الوعيد والتهديد بالتمتع بنعيم الدنيا أمر عباده المؤمنين بعدم المغالاة فى التمتع بها والجد فى مجاهدة النفس والهوى ببذل النفس والمال فى كل ما يرفع شأنهم ويقربهم من ربهم وينيلهم الفوز لديه فى يوم لاتنفع فيه فدية ولا صداقة ولا خلة : «يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ. إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» .

أخرج عطاء عن ابن عباس أن هؤلاء هم كفار مكة ، وأخرج الحاكم وابن جرير والطبرانى وغيرهم عن على كرم الله وجهه أنه قال فى هؤلاء المبدّلين : هم الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة فقطع الله تعالى دابرهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين .

الإيضاح

عدد سبحانه الأسباب التى أوقعت هؤلاء الأشقياء ومن شايعهم فى سوء المنقلب وحصرها فى ثلاثة :

(١) (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا) أى ألم تعلم وتعجب من قوم بدلوا شكر النعمة غمطا لها وجحودا بها كأهل مكة الذين أسكنهم الله حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء وجعلهم قوّام بيته ، وشرّفهم بإرسال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا بتلك النعمة ، فأصابهم الجدب والقحط سبع سنين دأبا وأُسِروا يوم بدر وصُفِّدوا فى السلاسل والأغلال وقتل منهم العدد العديد من صناديدهم ورجالاتهم ممن كانوا يضنون بهم ويحتفظون بمواضعهم * ليوم كريهة وسِداد ثغر *

(وأحلوا قومهم دار البوار) أى وأحلوا من شايعهم على الكفر دار الهلاك الذى لاهلاك بعده .

ثم بين هذه الدار فقال :

(جهنم يصلونها وبئس القرار) أى هذه الدار هى جهنم دار العذاب التى يقاسون حر نارها ، وبئس المستقر هى لمن أراد الله به النكال والوبال .

(٢) (وجعلوا لله أندادا) أى واتخذوا لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى ليس كمثله شىء ، أندادا وشركاء من الأصنام والأوثان ، أشركوهم به فى العبادة كما قالوا فى الحج : لبّيك لاشريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .

(٣) (ليضلوا عن سبيله) أى لتكون عاقبة أمر الذين شايعوهم على ضلالهم ، الصدّ والإعراض عن سبيله القويم ودينه الحنيف ، والوقوع فى حمأة الكفر والضلال .

ولما حكى الله عنهم هذه الهنات الثلاث ، تبديل النعمة ، واتخاذ الأنداد والأمثال ، وإضلال قومهم ، أمر نبيه أن يقول لهم على سبيل التهديد والوعيد : سيروا على ما أنتم عليه فإنه لا فائدة فى نصحكم وإرشادكم والعاقبة النار .

(قل تمتعوا) أى تمتعوا بما أنتم فيه سادرون مما سيؤدى بكم إلى مهاوى الهلاك من الكفران وعبادة الأوثان والأصنام والسعى فى إضلال الناس والصد عن سبيله .

ثم بين جزاءهم المحتوم فقال :

(فإن مصيركم إلى النار) أى إن مرجعكم وموئلكم إليها كما قال: « نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ » وسمى الله تعالى ذلك تمتعا ، لأنهم تلذذوا به وأحسوا بغبطة وسرور كما يتلذذون بالمشتهيات من النعم ، وهذا الأسلوب التهكمى يستعمل فى التخاطب كثيرا فترى الطبيب يأمر مريضه بالاحتماء من بعض ما يضره ويؤذيه ، ثم لايرى منه إلا تماديا فى الإعراض عن أوامره واتباعا لشهواته ، فيقول له: كل ما تريد فإن مصيرك إلى الموت ، وما مراده من ذلك إلا التهديد ليرتدع ويقبل ما يقول . وكما يقال لمن سعى فى مخالفة السلطان : اصنع ما شئت فإن مصيرك إلى السيف .

وبعد أن هدد الكفار على انغماسهم فى اللذات ، أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر خلّص عباده بإقامة العبادات البدنية وأداء الفرائض المالية فقال :

(قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم) أى قل لهم : أقيموا الصلاة على وجهها وأدوها كما طلب ربكم فهى عماد الدين وهى التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى المصباح للمؤمن يستضىء به للقرب من ربه ، وأدوا الزكاة شكرا له على نعمه الجزيلة ، رأفة بعباده الفقراء سدا لخلتهم وإيجادا للتضامن والتعاون بين الإخوة فى الدين : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » .

(سرا وعلانية) أى أنفقوا ذلك فى السر والعلن ، ولكل منهما حال تستحب فيها وقد تقدم القول فى تفصيل ذلك .

(من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) أى من قبل أن يأتى اليوم الذى لاتنفع فيه فدية ولا تجدى فيه صداقة ، فلا يشفع خليل لخليل ولا يصفح عن عقابه لمخالته لصديقه ، بل هنالك العدل والقسط كما قال : « فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ

وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » وقال : « أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ » .

اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) .

شرح المفردات

السماء : السحاب وكل ما علا الإنسان فأظله فهو سماء ، والرزق: كل ما ينتفع به، والتسخير : التيسير والإعداد ، والفلك : السفن ، دائبين : أى دائمين فى الحركة لا يفتران ، يقال دأب فى العمل إذا سار فيه على عادة مطردة كما قال : « تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا » آتاكم : أى أعطاكم ، لا تحصوها : لا تطيقوا حصرها ، والإحصاء العد بالحصى وكان العرب يعتمدونه فى العد كاعتمادنا فيه على الأصابع ، ظلوم : أى لنفسه بإغفال شكر النعمة ، كفار : شديد الكفران والجحود لها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال الكافرين لنعمه حين بدلوا الشكر بالكفر واتخذوا لله أندادا فكان جزاؤهم جهنم وبئس المهاد ، ثم أمر المؤمنين بإقامة شعائر الدين من صلاة وزكاة شكرا لربهم على ما أوتوا من النعم وحثا لهم على الجهاد فى سبيل كمالهم ورقيهم ببذل النفس والنفيس وهو المال لتكمل لهم السعادة فى الدارين ــ شرع يذكر

الأدلة المنصوبة فى الآفاق والأنفس التى توجب على عباده المثابرة على شكره ودوام الطاعة له ، ويذكر النعم الجسام التى يتقلبون فى أعطافها آناء الليل وأطراف النهار ، ليكون فى ذلك حث لهم على التدبر فيما يأتون وفيما يذرون ، وفيه عظيم الدلالة على وجوب شكر الصانع لها ، كما فيه أشد التقريع للكافرين الذين أعرضوا عن النظر والتفكر فى تلك النعم فكان هذا داعية كفرها وجحودها ، وغمطها وكنودها .

الإيضاح

(الله الذى خلق السموات والأرض) أى الله الذى خلق لكم السموات والأرض وهما أكبر خلقا منكم وفيهما من المنافع لكم ما تعلمون وما لاتعلمون ، وتقدم تفصيل هذا فى مواضع متعددة من كتابه الكريم .

(وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) أى وأنزل من السماء غيثا أحيا به الشجر والزرع فأثمرت لكم رزقا تأكلون منه وتعيشون به .

والآية كقوله : « وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى» أى من ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع .

(وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره) أى وذلل لكم السفن بأن أقدركم على صنعها وجعلها طافية على وجه الماء تجرى عليه بأمره تعالى وسخر البحر لحملها ، ليقطع المسافرون بها المسافات الشاسعة من إقليم إلى إقليم لجلب ماهناك إلى هنا ونقل ماهنا إلى هناك .

(وسخر لكم الأنهار) تشق الأرض شقا من قطر إلى قطر لانتفاعكم بها حيث تشربون منها وتتخذون جداول تسقون بها زروعكم وجناتكم ، وما أشبه ذلك .

(وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) أى دائمين فى الحركة لايفتران إلى انقضاء عمر الدنيا كما قال : « لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ، وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» وقال : «يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » .

(وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان ، فالنهار لسعيكم فى أمور معاشكم وما تحتاجون إليه فى أمور دنياكم ، والليل لتسكنوا فيه كما جاء فى الآية الأخرى (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) فالشمس والقمر يتعاقبان ، والليل والنهار يتعارضان ، فتارة يأخذ هذا من ذاك فيطول ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر كما قال تعالى : « يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ » .

(وآتاكم من كل ما سألتموه) أى هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه فى جميع أحوالكم من كل الذى هو حقيق أن تسألوه سواء أسألتموه أم لم تسألوه ، لأن هذه الدنيا قد وضع الله فيها منافع يجهلها الناس وهى معدة لهم ، فلم يسأل اللهَ أحدٌ فى الأمم الماضية أن يعطيهم الطائرات والمغناطيس والكهرباء ، بل خلقها وأعطاها للناس بالتدريج ، ولم يزل هناك عجائب ستظهر لمن بعدنا .

(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أى لا تطيقوا عدّ أنواعها فضلا عن القيام بشكرها .

وفى صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم لك الحمد غير مكفىّ ولا مودّع ولا مستغنى عنه ربنا » وأثر عن الشافعى أنه قال : الحمد لله الذى لا يؤدّى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها ، وقال شاعرهم :

لو كل جارحة منى لها لغة تثنى عليك بما أوليتَ من حسن
لكان مازاد شكرى إذ شكرت به إليك أبلغ فى الإحسان والمنن

(إن الإنسان لظلوم كفار) أى إن الإنسان الذى بدل نعمة الله كفرا لشاكر غير من أنعم عليه ، فهو بذلك واضع للشكر فى غير موضعه - ذاك أن الله هو الذى أنعم عليه بما أنعم واستحق إخلاص العبادة له ، فعبد هو غيره وجعل له أندادا ليضل

عن سبيله ، وذلك هو ظلمه ، وهو جحود لنعمه التي أنعم بها عليه لصرفه العبادة إلى غير من أنعم بها عليه وتركه طاعة من أنعم عليه .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي، وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) .

شرح المفردات

واجنبني : أي أبعدني ، وأصل التجنب أن يكون الرجل في جانب غير ما عليه غيره ثم استعمل في البعد مطلقا ، وتهوى إليهم : أي تسرع شوقا وحبا ، ويقوم الحساب أي يثبت ويتحقق كما يقال قامت السوق والحرب : أي وجدتا .

المعنى الجملي

بعد أن نصب سبحانه الأدلة على أن لا معبود سواه ، وأنه لا يجوز بحال أن يعبد غيره ، وطلب إلى رسوله أن يعجب من حال قومه إذ بدلوا نعمة الله كفرا وعبدوا الأوثان والأصنام .

ذكر هنا أن الأنبياء جميعا حثوا على ترك عبادة الأصنام؛ فإبراهيم صلوات الله عليه وهو أبوهم نعى على قومه عبادتها وطلب إلى الله أن يجنبه و بنيه ذلك ، فإنها كانت سببا فى ضلال كثير من الناس ، وشكر الله على أن وهب له على كبره ولديه إسماعيل و إسحاق ، ثم ختم مقاله بأن يغفر له ولوالديه والمؤمنين ذنوبهم عند العرض والحساب.

الإيضاح

(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) أى واذكر لقومك مذكرا لهم بأيام الله خبر إبراهيم إذ قال : ربى المحسن إلىّ بإجابة دعائى اجعل مكة بلدا آمنا .

وقد أجاب الله تعالى دعاءه فجعله حرما لايسفك فيه دم ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه كما قال : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » .

(واجنبنى و بنىّ أن نعبد الأصنام) أى و باعدنى و بنىّ من أن نعبد الأصنام ، أى ثبتنا على ما نحن عليه من التوحيد وملة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام .

وقد استجيب دعاؤه فى بعض بنيه دون بعض ولا ضير فى ذلك .

(ربّ إنهن أضللن كثيرا من الناس) أى يا رب إن الأصنام أزلن كثيرا من الناس عن طريق الهدى وسبيل الحق حتى عبدوهن وكفروا بك .

(فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم) أى فمن تبعنى على ما أنا عليه من الإيمان بك ، و إخلاص العبادة لك والبعد عن عبادة الأوثان - فإنه مستنّ بسنتى وجار على طريقتى ، ومن خالف أمرى فلم يقبل منى ما دعوته إليه وأشرك بك فإنك قادر على أن تغفر له وترحمه بالتوبة عليه وهدايته إلى الصراط المستقيم .

(ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) أى يارب إنى أسكنت بعض ذريتى وهم أولاد إسماعيل بواد غير ذى زرع وهو وادى مكة عند بيتك الذى حرمت التعرض له والتهاون به وجعلت ما حوله حرما لمكانه .

(ربنا ليقيموا الصلاة) أى إنما جعلته محرما ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ويعمروه بذكرك وعبادتك .

(فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) أى فاجعل قلوب بعض الناس محترقة شوقا إليهم .

(وارزقهم من الثمرات) أى وارزق ذريتى الذين أسكنتهم هناك من أنواع الثمار بأن تجبى إليهم ذلك من شاسع الأقطار ، وقد استجاب الله ذلك كما قال : « أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا »
قال الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا فى كتابه الإسلام والطب الحديث : دعاء سيدنا إبراهيم يفسر ما قلناه ، وهو أن الدعاء سنة طبيعية لا أكثر ولا أقل ، فالنبى يدعو ربه ليلهم الناس حج البيت ، فهو يستعين بسنة طبيعية ، وهى إلهام الخالق لنا حج البيت مع أنه يعلم أن الله قادر على أن ينزل عليهم رزقا من السماء ، ولكن النبى ضرب لنا مثلا فى طريق استعمال الدعاء وقيمته ، فالدعاء لا يلغى سنة طبيعية ولا يأتى بالمعجزات ، ولكن الداعى يطلب من الخالق الهداية إلى إحدى السنن الطبيعية وسأضرب لك مثلا بالنسبة للمريض وعلاجه ، فقد أخبرنى البعض أن من يطلب الطبيب لا يستعين بالدعاء ، والحقيقة غير ذلك ، فالوالد الذى يدعو ربه لشفاء ولده ، لا فائدة من دعائه إذا كان ولده قد مات أو إذا كان مرضه مميتا حتما ، ولكن قد يكون للمرض طرق علاج خاصة ، أو قد يشفى من نفسه فى ظروف خاصة ، فالدعاء فى هذه الحال معناه إلهام المريض ومن حوله من طبيب وغيره استعمال الطريق المؤدى إلى الشفاء ، والطبيب يحتاج دائما إلى هذا الإلهام ، وكم من مرة يقف فى مفترق الطرق ولا يدرى أية ناحية يسلك ، وكل طريق سنة طبيعية تؤدى إلى نتيجة خاصة ، والدعاء هداية إلى السنة المؤدية إلى الشفاء ، وهكذا يكون الدعاء والتطبيب وكل أعمال الإنسان يكمل بعضها بعضا وليست متناقضة ، فدعاء سيدنا إبراهيم معناه أن يلهم الناس بواسطة القوانين الطبيعية حج البيت ، وقد يقال ولكننا لا نشعر بإلهام

من عند الله ، وكل أفعالنا نتيجة مباشرة لتفكيرنا ، والشخص الذى يحج لا يشعر بإلهام أو شىء خفى ، ولكن الحقيقة أن أفعال الإنسان قد تكون نتيجة تفكيره واختباراته ويكون سبب حركاتها ظاهرا ؛ وقد تكون أفعاله غير منطبقة على تفكيره واختباراته ولكنه مع ذلك يندفع إلى العمل ، وكثيرا ما نشاهد أشخاصا لا يفكرون فى الحج مدة طويلة ، ولكن فجأة وبدون سبب ظاهر يصممون على الحج وينفذون إراداتهم ، وهذا العمل ظاهره الاختيار طبعا ولكنهم مدفوعون بقوة مسيطرة عليهم أشبه بالغريزة أو الوحى .

وقد أجاب الله إبراهيم إلى دعائه فألهم الناس الحج فى آلاف السنين وإلى ماشاء الله ، لا فى مدى حياته فحسب ؛ وفى هذا إظهار لقدرة الخالق وصدق وعده اهـ .

(لعلهم يشكرون) أى رجاء أن يشكروا تلك النعمة بإقامة الصلاة وأداء واجبات العبودية .

وفى هذا إيماء إلى أن تحصيل منافع الدنيا إنما هو ليستعان بها على أداء العبادات وتحصيل الطاعات ، وفى دعائه عليه السلام مراعاة للأدب والمحافظة على الضراعة وعرض الحاجة واجتلاب الرأفة ، ومن ثم منّ الله عليه بالقبول وإعطاء المسئول ، ولا بدع فى ذلك فهو خليل الرحمن وأبو الأنبياء جميعا .

(ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن) أى أنت تعلم ما تخفى قلوبنا حين سؤالك ما نسأل ، وما نعلن من دعائنا فنجهر به .

(وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء) أى لا ما يخفى على الله شىء يكون فى الأرض أو فى السماء ، لأن ذلك كله ظاهر متجلّ له ، لأنه مدبره وخالقه فكيف يخفى عليه .

(الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق) أى الحمد لله الذى وهب لى وأنا آيس من الولد لكبر سنى — ولدين إسماعيل وإسحاق .

(إن ربى لسميع الدعاء) أى إن ربى لسميع دعائى الذى أدعو به من قولى :

« اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » وقد كان إبراهيم سأله الولد بقوله : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » فلما استجاب الله دعاءه قال الحمد لله الخ.

(رب اجعلنى مقيم الصلاة) أى رب اجعلنى مؤديا ما ألزمتنى من فريضتك التى فرضتها علىّ .

(ومن ذريتى) أى واجعل أيضا من ذريتى مقيمى الصلاة ، وقد خص الصلاة من بين فرائض الدين لأنها العنوان الذى يمتاز به المؤمن من غيره ، ولما لها من المزية العظمى فى تطهير القلوب بترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

(ربنا وتقبل دعاء) أى ربنا تقبل عبادتى كما جاء فى قوله : « وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي » .

وجاء فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ : وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » .

(ربنا اغفر لى ولوالدىّ والمؤمنين يوم يقوم الحساب) أى اغفر لى ما فرط منى من الذنوب ولأبوى ، وقد روى عن الحسن أن أمه كانت مؤمنة : واستغفاره لأبيه كان عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى : « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ » الآية ، والمؤمنين بك ممن تبعنى على الدين الذى أنا عليه فأطاعك فى أمرك ونهيك ـ يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ

ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٥٢) .

شرح المفردات

تشخص : ترتفع ، مهطعين : مسرعين إلى الداعي ، مقنعي رءوسهم : أي رافعيها مع الإقبال بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شيء ، لايرتد : لايرجع ، هواء : خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهشة ، ويقال للجبان والأحمق قلبه هواء : أي لاقوة ولا رأي فيه كما قال حسان يهجو أبا سفيان بن حرب :

ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوّف نخب هواء

من زوال : أي من انتقال من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء ، وضربنا لكم الأمثال : أي بينا لكم أنهم مثلكم في الكفر واستحقاق العذاب ، عزيز : أي

غالب على أمره ينتقم من أعدائه لأوليائه ، وبرزوا : أى خرجوا من قبورهم ، مقرّنين أى مشدودين ، فى الأصفاد : أى فى القيود واحدها صَفَد ، سرابيلهم ، واحدها سربال: وهو القميص ، والقطران: دهن يتحلب من شجر الأبْهل والعَرْعَر والتوت كالزفت تدهن به الإبل إذا جربت . ويقال له الهناء ، وهو أسود اللون منتن الريح تقول هنأت البعير أهنؤهُ إذا طليته بالهناء ، وتغشى وجوههم النار : أى تعلوها وتحيط بها ، بلاغ : كفاية فى العظة والتذكير .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أن جزاء من بدلوا نعمة الله كفرا وجعلوا له الأنداد جهنم يصلونها وبئس المهاد ، وطلب إلى عباده المؤمنين مجاهدة النفس والهوى وإقامة فرائض الدين - ذكر هنا تسلية لرسوله وتهديداً للظالمين من أهل مكة أن تأخيرهم وتمتعهم بالحظوظ الدنيوية ليس بإهمال للعقوبة ولا لغفلة عن حالهم ، وإنما كان لحكمة اقتضت ذلك وهم مرصدون ليوم شديد الهول له من الأوصاف ما بُيِّنَ بعدُ ، وعليك أيها الرسول أن تنذر الناس بقرب حلوله ، وأنهم فى ذلك اليوم سيطلبون المردّ إلى الدنيا ليجيبوا دعوة الداعى ، وهيهات هيهات .

صاح هل رَيْتَ أو سمعت براعٍ رَدَّ فى الضرع ما قرى فى الحلاب

وقد كان لكم معتبر فى تلك المساكن التى تسكنونها فإنها كانت لقوم مثلكم كفروا بأنعم الله فأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ألا إن وعد الله لرسله لا يخلف وهو ناصرهم وخاذل أعدائه كما قال : «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا» وقال : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » ومحاسبهم فى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، يوم يخرجون من قبورهم للحساب أمام الواحد القهار ، وترى حال المجرمين يجل عن الوصف .

وهذا الذى قصصته عليكم تبليغ و إنذار ليتذكر به ذوو العقول الراجحة وليعلموا أن الله واحد لاشريك له .

الإيضاح

(ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) تقدم أن مثل هذا الخطاب من وادى قولهم : (إياكِ أعنى واسمعى يا جاره) فهو فى صورته للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ، وفيه تسلية للمؤمنين وتهديد للظالمين بأن الله محصٍ أعمالهم ومحيط بها ، وسيجزيهم وصفهم فى الحين الذى سبق فى علمه ، وأن عقابهم لابد آت ، فتركه بمنزلة حسبانه تعالى غافلا عن أعمالهم ، إذ العلم بذلك مستوجب لعقابهم لامحالة .

ثم أوعدهم حلول يوم يحاسبون فيه على أعمالهم وفيه من الهول ما يحير اللب ، ويدهش العقل فقال :

(إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) أى إنما يمهلهم ويمتعهم بكثير من لذات الحياة ولا يعجل عقوبتهم ، ليوم شديد الهول ترتفع فيه أبصار أهل الموقف وتبقى مفتوحة لاتطرف من الفزع والاضطراب .

(مهطعين) أى يأتون مسرعين إلى الداعى بالذلة والاستكانة كما يسرع الأسير والخائف .

(مقنعى رءوسهم) أى رافعيها مع دوام النظر من غير التفات إلى شىء .

(لايرتد إليهم طرفهم) أى لايرجع إليهم تحريك أجفانهم كما كانوا يفعلون فى الدنيا فى كل لحظة ، بل تبقى أعينهم مفتوحة لاتطرف من شدة الفزع والخوف .

(وأفئدتهم هواء) أى إنها مضطربة تجيش فى صدورهم ، تجىء وتذهب ولا تستقر فى مكان حتى تبلغ الحناجر ، لشدة ما يرون من هول موقف الحساب .

ثم ذكر مقالتهم حين يرون هول الموقف وما فيه من العذاب فقال :

(وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل

قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) أى خوّف أيها الرسول القوم الظالمين ، وازجرهم عما هم عليه من الظلم شفقة بهم ـ هول يوم العذاب وشدته حين يقولون من الهلع والجزع : ربنا أرجعنا إلى الدنيا وأمهلنا أمدا قريبا نجب فيه دعوة الرسل إلى توحيدك وإخلاص العبادة لك بعد أن جحدنا ذلك .

ثم رد عليهم مقالتهم بقوله :

(أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) أى وحينئذ يقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع : ألم تحلفوا فى الدنيا إنكم إذا متم لا تخرجون لبعث ولا حساب كما حكى الله عنهم : « وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ » فذوقوا وبال أمركم .

أخرج البيهقى عن محمد بن كعب القرظى أنه قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى فى أربع منها ، فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون : « رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ، فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » فيجيبهم الله عز وجل : « ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ، فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » ثم يقولون : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » فيجيبهم جل شأنه : « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا » الآية ، ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ » فيجيبهم تبارك وتعالى : « أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ » الآية . ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » فيجيبهم جل جلاله : « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » فيقولون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » فيجيبهم جل وعلا : « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » فلا يتكلمون بعدها إن هو إلا زفير وشهيق وحينئذ ينقطع رجاؤهم ويقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض

وتطبق عليهم جهنم . اللهم إنا نعوذ بك من غضبك ونلوذ بكنفك من عذابك ونسألك التوفيق للعمل الصالح فى يومنا لغدنا ، والتقرب إليك بما يرضيك قبل أن يخرج الأمر من يدنا اه .

(وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) أى وأقمتم فيها واطمأننتم وسرتم سيرة من قبلكم فى الظلم والفساد لم تفكروا فيما سمعتم من أخبار من سكنوها قبلكم ولم تعتبروا بأيام الله فيهم وأنه أهلكهم بظلمهم ، وأنكم إن سرتم سيرتهم حاق بكم مثل ما حاق بهم ، بعد أن تبين لكم ما فعلنا بهم من الإهلاك والعقوبة بمعاينة آثارهم وتواتر أخبارهم ، ومثّلنا لكم فيما كنتم مقيمين عليه من الشرك الأشباه والنظائر ، فلم ترعووا ولم تتوبوا من كفركم .

الآن تسألون التأخير للتوبة حين نزل بكم من العذاب ما نزل ؟ فهيهات هيهات ، قد فات ما فات ولن يكون ذلك حتى يلج الجمل فى سم الخياط .

ثم بين أن حالهم كحال من سبقهم حذو القُذَّة بالقُذَّة فقال :

(وقد مكروا مكرهم) أى وقد مكروا فى إبطال الحق وتقرير الباطل مكرهم الذى استفرغوا فيه كل جهدهم وأحكموا أسبابه حتى لم يبق فى قوس الحق منزع .

ثم ذكر بعدئذ أن الله عليم بكل ما دبروا فقال :

(وعند الله مكرهم) أى ومكتوب عند الله مكرهم وهو لامحالة مجازيهم عليه ، ومعذبهم من حيث لايشعرون .

والخلاصة — عند الله جزاؤهم وما هو أعظم منه ، فرأيهم آفن إذ هم سلكوا طريقا كان ينبغى البعد عنها بعد أن استبان فسادها .

ثم ذكر أن عاقبة مكرهم الخسران والبوار فقال :

(وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) أى وما كان مكرهم لتزول به آيات الله وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدى الرسل التى هى كالجبال فى الرسوخ والثبات .

والخلاصة — تحقير شأن مكرهم وأنه ما كان لتزول منه الآيات والنبوات الثابتة ثبوت الجبال ، فليس بمزيل شيئا منها مهما قوى وكان غاية فى المتانة والعظم .

(فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) هذا الخطاب لرسوله صلى الله عليه وسلم على نهج سالفه ، والمقصود منه تثبيت أمته على ثقتهم بوعد ربهم وتيقنهم بإنجازه بتعذيب الظالمين وأنه منزل سخطه بمن كذبه وجحد نبوته .

(إن الله عزيز ذو انتقام) أى غالب على أمره لا يمتنع منه من أراد عقوبته ، وقادر على كل من طلبه لا يفوته بالهرب منه ، وهو ذو انتقام ممن كفر برسله وكذبهم وجحد نبوتهم وأشرك به واتخذ معه إلها غيره .

ثم ذكر زمان الانتقام فقال :

(يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) أى إنه تعالى ذو انتقام يوم تبدل الأرض غير الأرض بأن تتطاير هذه الأرض كالهباء وتصير كالدخان المنتشر ثم ترجع أرضا أخرى بعد ذلك ، وتبدل السموات بانتثار كواكبها وانفطارها وتكوير شمسها وخسوف قمرها .

قال ابن عباس رضى الله عنهما هى تلك الأرض إلا أنها تغيرت فى صفاتها ، فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوى فلا يرى فيها عوج ولا أمت ، وروى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يبدل الله الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدها مدّ الأديم العُكاظىّ فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا » .

وهذه الآية الكريمة من معجزات القرآن التى أيدها العلم الحديث وانطبقت عليه أشد الانطباق ، فعلماء الفلك الآن يقولون إن الأرض والشمس وسائر الكواكب السيارة كانت فيما مضى كرة نارية حارة طائرة فى الفضاء ودارت على محورها ملايين السنين ، ثم تكونت منها الشمس ، وبعد ملايين أخرى فصلت منها السيارات ومنها الأرض ، وبعد مئات الألوف انفصلت عنها الأقمار .

ولا شك أن هذه الحال بعينها ستعاد كرة أخرى : أى إن الأرض والكواكب والشمس بعد ملايين السنين ستنحل مرة أخرى ويذوب ذلك الموجود كله ويتطاير فى الفضاء حقبة من الزمن ، ثم تعاد كرة أخرى وتكون شمس غير هذه الشمس وأرض غير هذه الأرض وسموات غير هذه السموات .

روى مسلم عن عائشة قالت : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ـ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله ؟ فقال : على الصراط » .

وروى عن أبىّ بن كعب أنه قال فى معنى التبديل : إن الأرض تصير نيرانا .

وعلى الجملة فقد اتفق العلم الحديث مع الآيات والأحاديث على أن الأرض تصير نارا وأن الناس لا يكونون عليها ، بل هناك ما هو أعجب وهو ماروى عن ابن مسعود وأنس رضى الله عنهما من قولهما : يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة ، ولا بدع فى أن تكون أرضا جديدة لم يسكنها أحد ، بل تخلق خلقا جديدا.

(وبرزوا لله الواحد القهار) أى وخرجوا من قبورهم لحكم الله والوقوف بين يدى الواحد القهار ، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار سواه .

وفى هذا من تهويل الخطب مالا يخفى ، لأنهم إذا وقفوا عند ملك عظيم قهار لا يشاركه سواه فى سلطانه كانوا على خطر إذ لا منازع له ولا مغيث سواه .

وبعد أن وصف سبحانه نفسه بكونه قهارا ـ بين عجز المجرمين وذلتهم فقال :

(وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد . سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) وصفهم سبحانه بجملة أمور :

(١) إنه يقرن بعضهم إلى بعض فى القيود ويضم كل إلى مشاركه فى كفره وعمله كما قال تعالى : « وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ » وقال : « فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ » وفى الحديث : « أنت مع من أحببت » .

(٢) إن قمصهم التي يلبسونها من قطران ، والمراد من ذلك أن جلود أهل النار تطلى بالقطران حتى يعود طلاؤها كالسرابيل ، ليجتمع عليهم أربعة ألوان من العذاب : لذع القطران وحرقته ، وإسراع اشتعال النار فى الجلود ، واللون الأسود الموحش ، ونتن الريح .

(٣) إن وجوههم تعلوها النار وتحيط بها وتسعر أجسامهم المسربلة بالقطران ، وإنما ذكرت الوجوه مع أن ذلك يكون لسائر الجسم - لكونها أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها .

ونظير الآية قوله : « أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقوله : « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » .

(ليجزى الله كل نفس ما كسبت) أى فعل الله ذلك بهم جزاء بما كسبوا فى الدنيا من الآثام جزاء وفاقا ، كى يثيب كل نفس بما كسبت من خير أو شر فيجزى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

(إن الله سريع الحساب) فيحاسب جميع العباد فى أسرع من لمح البصر ، ولا يشغله حساب عن حساب ، كما لا يشغله رزق زيد عن رزق عمرو .

(هذا بلاغ للناس) أى هذا القرآن الكريم بلاغ للناس أبلغ الله به إليهم فى الحجة عليهم وأعذر إليهم بما أنزل فيه من مواعظه وعبره .

(ولينذروا به) عقاب الله ويحذروا به نقمته .

(وليعلموا أنما هو إله واحد) أى وليعلموا بما احتج به عليهم من الحجج فيه أنما هو إله واحد لا آلهة شتى كما يقول المشركون بالله ، وهو الذى سخر لهم الشمس والقمر والليل والنهار وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم .

(وليذكر أولو الألباب) أى وليتذكروا ويتعظوا بما احتج الله به من الحجج

فينزجروا عن أن يجعلوا معه إلها غيره ، وفى تخصيص التذكر بأولى الألباب إعلاء شأنهم ، و إيماء إلى أنهم هم أهل النظر والاعتبار .

وجملة القول إنه سبحانه جعل لهذا البلاغ ثلاث فوائد هى الحكمة من إنزال الكتب والرسل :

(١) إن الرسل يخوفون الناس عقاب الله و ينذرونهم بأسه ليكملوهم بمعرفة ربهم وتقواه والعمل على طاعته .

(٢) إن الناس ترتقى قوتهم النظرية إلى منتهى كمالها بتوحيد الخالق والاعتراف بأنه مدبر الكون والمسيطر عليه .

(٣) إنهم يستصلحون قوتهم العملية بتدرعهم بلباس التقوى .

فذلكة لمحتويات السورة

(١) هداية الناس إلى معرفة ربهم الخالق للسموات والأرض .

(٢) ذم الكافرين الذين يستحبون الدنيا و يصدون عن الدين القويم .

(٣) بيان أن الرسل إنما يرسلون بلغات أقوامهم ليسهل عليهم فهم الأوامر والنواهى .

(٤) التذكير بأيام الله ببيان ماحدث للرسل مع أقوامهم ليكون فى ذلك تسلية لرسوله ، وما هدد به الأمم رسلهم من الإخراج والنفى من الديار .

(٥) وعيد الكافرين على كفرهم وذكر ما يلقونه من العذاب ، وضرب الأمثلة لذلك .

(٦) وعد المؤمنين بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وضرب المثل لذلك .

(٧) دعوة إبراهيم ربه أن يجنبه و بنيه عبادة الأصنام التى أضلت كثيرا من الناس ، ثم شكره على ما وهبه من الأولاد على كبر سنه ، ثم طلبه المغفرة منه له ولوالديه وللمؤمنين يوم العرض والحساب .

(٨) بيان أن تأخير العذاب عن المجرمين ليوم معلوم ، إنما كان لحكمة اقتضت ذلك ، وحينئذ يرون من الذلة والصغار وسوء العذاب ما يجل عنه الوصف.

تم تفسير هـذا الجزء بحلوان من أرباض القاهرة فى صبيحة يوم الأحد لثلاثين من شهر ربيع الثانى من سنة ثلاث وستين وثلثمائة وألف من الهجرة النبوية .

والحمـــد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على محمـد وعلى آله وصحبه الكرام .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء